سلسلة الجيرة الورقية، إصدار رقم: (١٦)

طنجة النصرانية

[رواية من الأدب المَمْدَري]

الروائي:

محمد محمد البقاش

منشورات الجيرة

المؤلف: **محمد محمد البقاش** أديب باحث وصحافي.

الكتاب: **طنجة النصرانية** (رواية من الأدب المَمْدَري)

الإيداع القانوني: **462 ــ 98**

ردمد **ISSN 1114 – 8640**

الحقوق: محفوظة للمؤلف.

الطبعة الورقية الأولى: **2011**.

القطع الموسيقية: من وضع المؤلف

الغلاف: **Le Boulevard De La Mer** صــورة فوتوغرافيــة بالأبيض والأسود لبوليفار البحر كان يصله موجه عند باب المرسى القديــم سنة **1923**م طنجة.

السحب: إفزارن للطباعة والنشر **94** شارع فاس، تجزئة صولار ــ ب ــ فينيتو رقم **3** ــ طنجة ــ الهاتف **0539336909** / الفاكس: **0539937131**

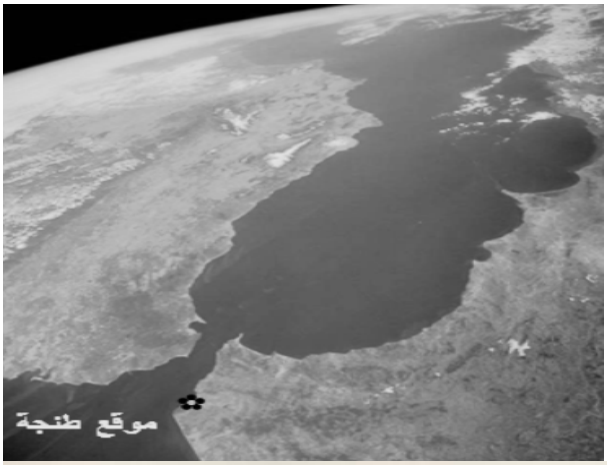
موقع طنجة

بوليفار البحر 1923م
عند باب المرسى القديم
- طنجة -

فصل:

للاّ جميلة

قطعة:

يدير في دماغه صور تقلُّبها في فراشه ونشوة اغتصابها، صبيّة طنجاويّة، سَنِيّة بَهِيّة، فاتنة مُحْصنة، مليحة صبيحة..
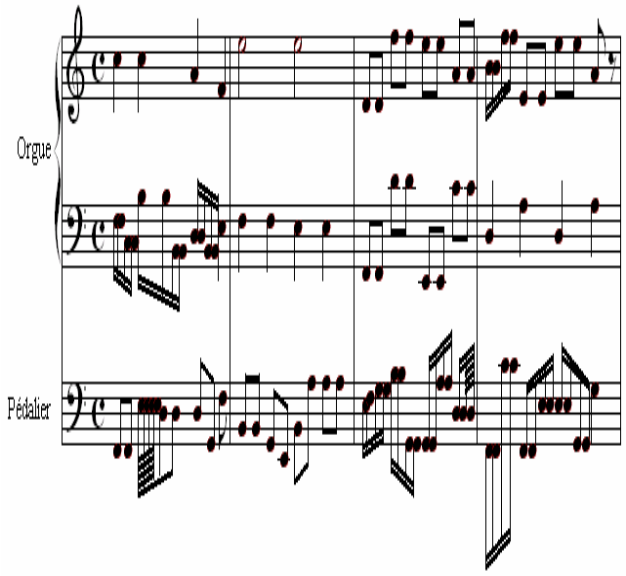
ساحة فرنسا 1932م - طنجة -

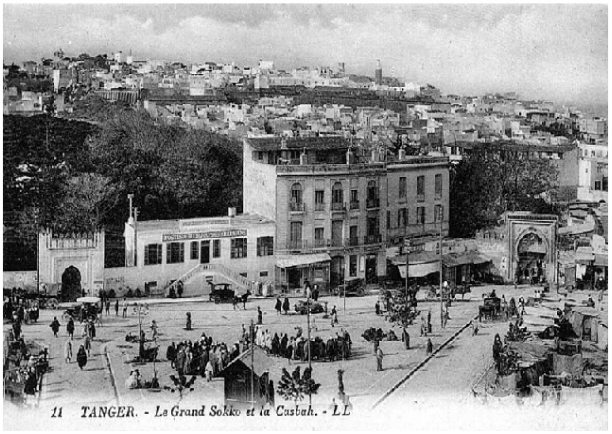
11 TANGER. - Le Grand Sokko et la Casbah. - LL

في عُرْض البحر بين ضفّتين ترسو باخرة تراقب المـــضيق وعينها على بَرّي، تقوم بواخر أخرى بدوريات على امتداد ما طالت يد البرتغاليين في الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، ترسو السفينة فوق بحر أمواجه كليمة، لا يزال حسيس نَقَلة حضارة النور يملأ سمعه، ولا يزال صـــدى أنـــين الغرقـــى المطرودين من الأندلس يملأ أفقه، الفعل العنصري صـــليبية، والفعل الصليبي عنصرية، صوت في الأثير لا يزال يُـــسمع، وعين الخلف من فزع يومئذ طفقت تدمع، على متنها رُبّـــان تُستنبت الثقافة الإمبريالية في عقله استنباتا، يحمـــل في يـــده منظارا يوجهه إلى الضفتين يراقب به البرّ والبحر. وجّهه من بحري إلى برّي فلفت نظره كواعب بينهن أميرة مُتوَّجة قـــد فَلَكَتْ عن مَشْكَنٍ من الكائنات، حسناء لا يعوزها الثنـــاء،

تاجها مُرصّع بلآلئ تحتجب من فرط ضيائها الشموس، شمس هي لا كأي شمس، وقمر هي لا كأي قمر، جمالها كريم النبل، وحسنها إمام الحسن، يتلألأ الكون من شدة تلألئها، ويباهي من بهار ملَك ألَقُها. تجلس على صخرة في ساحل البحر، قرّبها إلى بصره فانبهر بجمال وجهها وبهاء طلعته، نادى على مساعديه فمنحهم منظاره المكبر ليستطلعوا ما استطلع.. أُخذوا جميعا بالحسناء، وكيف لا وهم يتوهّون تفريخ الجمال في أوروبا فقط، حرّكوا مركبهم فمخر العباب بهم نحو الشاطئ للاستيضاح أكثر، كلما اقتربوا من الساحل ازداد فضول البنت فوقفت على صخرتها تسرّ الناظرين، تستمتع بلوحات متحركة لأذكى الحيوانات البحرية، استطالت خَيْزُرانية خضراء كأنها عارضة أزياء وطفقت تنظر إلى المركب، أمعنوا في الاقتراب حتى صارت الرؤية أوضح، والنداء أفصح، أرخوا مرساة المركب في عمق خمسة ملايين ميكرومتر ـ1ـ، ثم حدّقوا إلى الصخرة القائمة المستقيمة، عَيَّطَ القائد على البنت فلم تعره اهتماما، يلوِّحون لها في

عِيـــاط عال فلا تحفل بهـــم، دققوا النظر فانبهروا بجميلـــة الجميلات، اندهشوا لقوامها الذي لا يزاد فيه أو ينقص منه، وكيف يزاد فيه أو ينقص منه وهو المعيار الدقيق للجمـــال، رفيفة الثغر، خالصة اللون، وباهرة الجمال، رشاقتها رشـــاقة الفَراش، ورزانتها قِطَع من غَواش، حسنها قد غطّى على بِلى ثيابها، خلف ظهرها خصلتان من لون الشفق تتدلّيان علـــى إجّاصة ناضجة، جيناها كأنها منسوبة لابن يعقوب، فهل هي جينات يوسُفية؟ يأخذ محيطها لونه من لون شعرها، كل شيء يتداعى لجمالها، ويخشع لكمال قدِّها.. طفقوا يراقبونها حتى دخلت "براكة" في أعلى الجبل، حول بيتها الصفيحي غرسة مُشجّرة بها فلاّح مشغول بمعالجة أرضه ونبات جنته، لم تطل البنت المكوث داخل البيت؛ إذ خرجت إلى شـــياه وعِنـــاز يصطحبها كلبها فشرعت مُتعطِّفة تقود قطيعها الـــصغير إلى

الحظيرة، الأفق في مدّ صرها يحمـــرّ، والشفق تحت جفن السماء يتجمّر، الغسق خلـــف الموج مُتَخـــفّ، و

في المحيط تغطس، حدّد الربّان موضع السكنى، ثم مخر الفُلْك العباب إلى المرسى..

اصطحب القائد رفاقــا بعدد حروف اسمها حتى أتــوا بيت الحسناء ومعهم ترجمان، نادوا على رب البيت فخرج إليهم يتبعه ذو الخمسيــن فقرة لعموده الفقــري متمسِّحا بكلتي ساقيه، ونباح كلبيه على الغربــاء، لم يطمئن إليهــم رغــم تصنُّعهم، أفصح الرُّبّان عن رغبته في الزواج من بنت الطَّنجاوي، فرح الرجل فرحا شديدا وأبدى رضاه، ففسح لهم، ثم طالبهم بالانتظــار ريثما يأخذ رأي العروس، فبادره بالقول:

ــ لا، لا حاجة لرأي البنت.

فقال وقد جافى فيه هواه فأيقظ جــدّه وأمــات هزْله:

ــ عندما يرغب طائــر في الزواج من أنثى مــن

جنسه يحمل برجله حصى ويقْدم بها إلى الأنثى التي يصطفيها للزواج فيضعها تحت قدمها، فهل هي صداقها أم هديتها؟ فإذا التقطتها كان التقاطها دليلا على قبولها له زوجا لها فيتزوجان، ثم تبيض له فيظل حاضنا بيضتها لا يأكل ولا يشرب أربعة أشهر وإذا لم تلتقطها كان دليل رفضها فيتحول إلى غيرها حتى يجد لنفسه عروسا تتزوجه برضاها. وطائر الرفراف يغطس في الماء لالتقاط سمكة، فإذا صادها ضربها يمنة ويسرة لإماتتها وأدار ذيلها إلى جهة منقاره والأصل أن يدير رأسها، ثم يطير بها باحثا عن أنثى من جنسه، فإذا وقع بصره عليها أتاها بهديته، يقترب منها ويتودد إليها، فإذا هي أخذت منه هديته كان دليل قبولها له زوجا لها، وإن هي رفضت تحول عنها إلى غيرها حتى يجد حبيبته، هذا فعل الطير، فما بال الإنسان؟ إنك مازح، أليس كذلك؟.

لم يسأل للكنة المتحدث إليه، ولما تحرك نحو ابنته لاستشارتها؛ دخل سمعه كلام يتأبط لغة لاتينية فرَّخته وقد كانوا منذ حين صامتين، ظن الرجل أن الترجمان هو العريس، وأن صمت من

استرفقهم حياء، عندها توقف وسأل قائلا:

((من يكون هذا الأجنبي؟)).

فرد عليه:

ــ قائد برتغالي.

ــ ولماذا يرافقك في خِطبتك؟ وهل فيهم أبوك أو عمّك أو أحد من عائلتك؟

ــ كلا.

ــ كيف؟

ــ لست أنا الراغب في الزواج من ابنتك، بل رُبّان السفينة.

ــ الرُّبّان برتغالي، فهل هو موريسْكي؟

ــ إنه مسيحي.

ــ وإذن.

ــ إذن ماذا؟

ــ كيف؟ ألا تعرف أن ديننا يحرم علينا تزويج بناتنا إلا للمسلمين وإن كان لا يمانع من زواج ذكورنا من إناثهم الكتابيات؟

ـــ أعرف.

ـــ وتوافقهم!

ـــ أم أم أم.

ـــ أليست ابنـــتي على دينـــك؟ أليست من أهـــل بلـــدك ومدينتك؟.

ـــ أنا مجرد ترجمان.

ـــ ولكنك متواطئ وقد كدت تخدعني، اذهب واصطحبهم فلا حاجة لي في زواج يأتي منه حَفَدة غير مسلمين.

دخل بيته وأقفل بابه، وما إن عاد إلى دَيْدنه، وجلس إلى عمله حتى شرعوا يدفعون الباب وهم يصرخون، طرحوها واقتحموا سكنه عُنوة وأمسكوا به ونحّوه جانبا، ثم أمسكوا بالبنت وهم يطمئنونه بلسان الترجمان قائلين: "أنها ستكون بخير وستعود إليه بعد حين".

يعرف لغتهم ولا يتخاطب معهم بها.

هاج والد البنت وهاجـــت المشرقة الوضيئة وتمنَّعـــا عـــن الانصياع، ولكن الرُّبّان ومساعديه أصرّوا على قيادتها إلى

سفينته للاستمتاع بها.

رأت البنت أن لا سبيل إلى إقناعهم بتركها فانقلبت إلى حَمَل وديع واقتربت من أبيها وهمست في أذنه:

"لا تخف يا أبتي، سيخلِّصنا الله منهم".

طالبت الترجمان أن ينقل إليهم رغبتها في بعض الوقت حتى تلملم أغراضها.

وقبل أن يفسحوا لها احتجبت الشمس لإشراقها، وانكفأ ضوؤها لضيائها، وساد النور لوسامتها، مدت يديها إلى السماء فاجْتَثَّت الشمس من فَلَكها وعصرتها بين سبّابَتيْها وإبْهامَيْها تستقطر منها ضوءا باهتا، ثم ألقت بها في الثقب الأسود لتأخذ هي مكانتها..

رشقهم بريق ألقها، ومسَّهم بهاء حسنها، أرهف سمعهم رقَّة صوتها، وانتظام الكلام في فمها، يسيحون بنظرهم في دقة أنفها، وملاحة ثغرها، يرقبون انفتاح ثغرها عن فلج مُقدَّم أسنانها، يستعطرون من عطر شفتيْها، ولا يبرحون النظر إلى خدّين هما عنوان نضارتها..

دخلت مطبخها وأوقدت النار، ثم وضعت عليها مقلاة ملأتها بزيت الشجرة المباركة وشرعت تؤجج النار بـــ"رابوز" في يديها، تستعجـــل المنفاخ براحَيْهـــا قلقة فاعتطب في كفيها، الترجمان ينادي عليها:

((لقد تأخرت))

وهي تجيب:

((ما بقي إلا القليل القليل من الوقت)).

تغشَّت بعزمها كنواة بِقطْميرها وهي تردّد:

لتسمعني الكائنات، لِيُنصتْ إليّ البحر، لِيُرهفْ سمعه الحجر، والصخر، لِتُحدِّقْ إليّ الخلية، والذرة، أنا لصيانة عِفّتي لا أعتذر..

فتحت باب مطبخها والقائد منتش بصور افتراسها، يدير في دماغه صور تقلُّبهـــا في فراشه ونشوة اغتصابهـــا، صبيّـــة طنجاويّة، سَنِيّة بَهِيّة، فاتنة مُحْصنة، مليحة صبيحة.. خرجت يسبقها الشواظ، يخرج من عينيها مُحْرِقا، تقدمت وفي يدها تلك المقلاة الفوّارة بزيتها، تحملها ولا تحمل

أغراضها، لم ترتد لخروجها من بيتها ما تعوّدت ارتداءه، استغرب الجميع وكان والدها أكثر استغرابـــا، لـــم يرتـــح لسلوكها، وما اطمئن لغيْبها، لم ير منها ما يمنع وقوعها في الفضيحة، تقدمت ثابتـــة، ثم أفرغت المقلاة علـــى وجههـــا فصاحت للتوّ صيحة رهيبة هوت بها مَغْميّاً عليها.

ارتبك الجميع واهتز قلب أبيهـــا فطفق يحملها سيّالـــة بين ذراعيه ليدخلها البيت، يحمل جسما كخشبة مُتفحِّمة، يتدلى عنقها بين ذراعي حاملها كأميرة ديْر البَلَح، الأولى إلى قبرها برصاص يهود فلسطين، والثانية إلى غرفتها في يدي أبيها بفعلتها ـــ2ـــ.

طفق الربّان ينظر إلـــى وجهها مستنكرا متحسِّرا وقد ذهب حسنه وانطمس بهاؤه، ثم غادر مُطوّقا بوضاعته، يمشي مشية قنفد البحر؛ ولكن على بهيميته، يجر خزيه وخيبته، تتبعه نيته الخبيئة، ونفسيته الخبيثـــة. ذاب لحـــم وجهها وذهب جلده فتشوّهت تشوُّها فظيعا فاقت به الرجل الفيل. استفاقت من إغمائها هَدْياً مسلوخا فوق أرضيـــة أرْوت زقّومـــا وأنبتت

غِسْلينا، أفاقت محطَّمة بنفسية عليلة ممسوسة. مرَّضها أبوها حتى شفيت، ولكن وجهها تبدّل، وسلوكها تغير، صار يغلب عليها الصمت والشرود. ظلت تزل إلى تلك الصخرة وتنظر في البحر والسماء بحبيبة كادت تنطفئ هي الأخرى، تلاحق الأفق ببصرها، والسماء بمناجاتها، كان الموقع منتزها مرتادا، فكان الناس يشفقون عليها عند رؤيـــة وجهها، يكبرونها ويكبرون تضحيتها التي منعتها من الوقوع في الاغتصاب، يتحسّرون على ذهـــاب جمالها، والْيِلال نهارها، وكلمـــا اقترب منها الفتيات؛ يسألنها عن مستقبلهن، يركبن فيها أرجوحة غيبهن، فكان على لسانها كلام يجري متكررا: ((ستتزوَّجين)). ومن يومها والفتيات الراغبات في الزواج يزرنها لسماع قولها لهن بأنكن ستتزوجن. ولما تُوفِّيت صرْن يقصدن الصخرة التي اكتشفها منها الربان البرتغالي فأطلقوا عليها صخرة للاّ جميلة.

اتّخَذْنها مزارا يتبرّكن بها ويدعين عندها.

أضحت مكان دعاء للراغبات فـــي الزواج، يقدمن فرادى

وزرافات بالحِنّاء والشموع وقد بَيَّتْن النية وصدَّقْن القبول، ينزلن إلى البحر إذا كان عنـــد جزره ويدخلـــن إلى الصخرة المجوفة يشعلن تلك الشموع وهنّ مزغْـــردات، وإذا كـــان البحر عند مدّه يكتفين بإتيان طقوس الزيارة حيث تتكسّر الأمواج من الشاطئ. يقدم إلى لَلاّ جميلة الشباب والرجال لمراقبة ما يفعل النساء والتجسس عليهن، منهم من يصطفي لَلاّ جميلة لامتلائها بالحياة، فهي كثيرة الأحجار والصخور والبرك الضحلة، يصطفيها السمك لوضع بيضه لأمنه وأمانه، تنوُّع أشكال الحياة فيها يتربص به أعداء البحر والبيئة وهم لا يزالون غيبا. عن يمين المزار ويساره تجد صيادين مشغولين بجمع الطُّعم، وبصيد السمك، بين الحين والآخر يسرق صياد أو اثنان أو أكثر نظرة ويتبعها بأخرى يلاحق طقوس الزيارة، يشاهَد أخذ بعض منهن حمامات باردة، ينشرن فوق سطح البحر شعورهن، تنتفخ ثيابهن فتصبـــح كالعجلات المطاطية تطفو بها أبدانهن، لا يتحررن من الثياب حتى يمكن الاطلاع على محاسنهن، ولكن ماء البحر حين يحل محل الهواء يلصق

ثيابهن على أبدانهن فيميزها ويكشف محاسنها ولا يسلمن من أعين متلصصة في تجويـــف صخرة أو خلـــف شجيرة تمارس العادة السرية، وأخرى تلتقط صورا لتحميضها في الذهن لتبديها عند مجالسة الأصدقاء والرفقاء.. إلى الجنوب الغربي بالقرب من المزار لِلَلاّ جميلة؛ تسكن روح سيدي ميمون الطاردة للأرواح الشريرة من أبدان البشر، لا ترقد روحه في تراب، ولا يغيض جثمانه في قبر. عنده أصناف كثيرة من الطعام وكلها خالية من الملح، يضعها الزوار للجن لتأكل منها، ولكن الأَكَلة من الجِنّ هم رُوّاد البحر من صيادي السمك والمتسكعين.. يستقدمون معهم ملحا فيرشونه على الطعام، ثم يزدردونه في لذة ونهم. فإذا استدبرت زائرة أو زائر وصعدا الجبل، وجاء توّاً من يبحث عن طعام الجن، ثم طعمه؛ أخذتهما القشعريرة، وتملكهما الخوف لاعتقادهما أن الطاعم جِنِّيٌّ فـــي صـــورة إنسيّ، عندها يزدادان تصديقـــا للعرّاف الذي أرشدهما إلى سيدي ميمون وطالبهما بوضع القربان من الطعـــام عنده، ويكبـــران مستحضـــر الأرواح

والمتحكم في الجن الذي لبى الدعوة للطعام ولا يعرف إن كانت الدعوة لطعام الغذاء أو العشاء.. تتقدم الراغبة في الزواج إلى لَلاّ جميلة؛ وكلهن راغبات مشفقات إلا ما ندر، فتقف في البحر وتأتي فتاة أخرى، أو امرأة وبيدها طست خشبي يطلقون عليه "السُّتّي" وتبدأ في غرف الماء من موج البحر وهي تحسب ما تغرف غرفة غرفة وتحصي ما غرفت منها موجة موجة. تصب الماء على رأس المرأة أو الفتاة. تظل تحصي عدد الموجات، تغرف منها طستها إلى أن تصل إلى حدود تسعة وتسعين طستا مليئا بماء البحر من تسعة وتسعين موجة، ثم تنتهي وسط زغاريد صدّاحة، وإناث فراحى قد أصابتهن روحانية المزار، واطمأنن إلى الاستجابة، فلا يبقى بعد طقوس رشّ الحِنّاء وصبغ الشعر بها، وإنارة المكان بالشموع قبل أن يطمس نوره المد البحري؛ إلا أن تعود المرأة والفتاة إلى بيتها وتنتظر في القريب العاجل طَقْطقة في الباب من الخُطّاب ببركة لَلاّ جميلة.

فصل:

وادي اليهود

قطعة:

في أواخر القرن التاسع عشر قرر يهود من الأندلس الكبيرة النزول إلى الأندلس الصغيرة فركبوا زوارق سرّاً تدفعها المجاديف باتجاه شاطئ مرقالة.
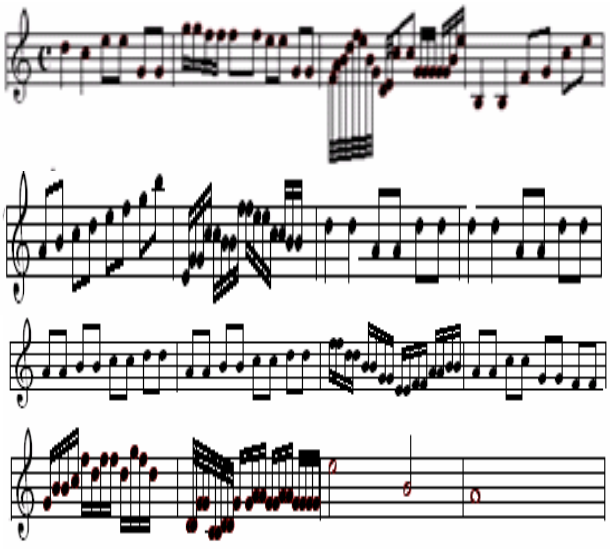
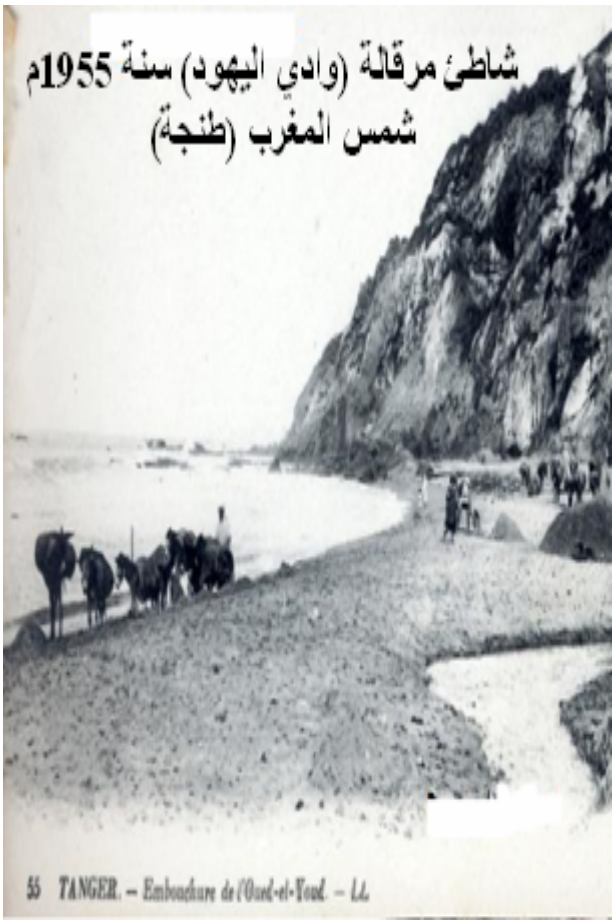
شاطئ مرقالة (وادي اليهود) سنة 1955م
شمس المغرب (طنجة)
55 TANGER. – Embouchure de l'Oued-el-Youd. – LL.

امتدّت يد البرتغاليين إلي فانتزعوني من دولة بني مريـــن واحتلوني سنة سبع وثلاثين وأربعمائة وألف.

ظللتُ أسيرة لديهم مدة مائتـــين وأربعة وعشرين عاما، ثم أخذني الإنجليز منهم هبة وكأني أَمَة، أخذتني إنجلترا باتفاق معهم يوم أن حملتْ بجنين أسمته الماسونية فكانت مدة حمله ستة وخمسون سنة، صرت جسرا لهـــم إلى إفريقيا، ومرفـــأ للتجارة الحرة، كان ذلك على عهد الملك الإنجليزي شارل الثاني إلى أن رفض برلمانهم صرف أية ميزانيـــة عليّ؛ وفوق صعيدي جيش يحتاج إلى نفقات، ومرافق تحتاج إلى تجهيز، وموظفون ودبلوماسيون وجواسيس وعملاء محميون يحتاجون لأموال..

أنتفضُ كلّما لحقني الذل، أو حلّ بي الظلم.

رفض ابني البار "الخضر غَيْلان" ما صرت إليه فنهض لدفعه.
بنا حبيبي الغالي قلعته الشهيرة التي عرفت باسمه بمالاباطا لمواجهة الاحتلال الإنجليزي وجهاده.
أنفثُ رياح الغضب لأهز بها قلوب الجبناء، ينهض لمقاومته أبنائي وأبناء ينتسبون لحضارتي.
حوصرتُ من جيش أمازيغ الشمال الشرقي، وعرب الشمال الغربي على عهد الاحتلال الإنجليزي وقد تحرّكـــت همّـــة "بوعرّاقيـــة" للجهاد مع شقيقـــه "الحاج الغزواني" فقصداني ولقيا القائد علي بن عبد الله الريفي وولده أحمد وانخرطا في جيشهما على عهد السلطان المولى إسماعيل..
وأنا على ذلك الحال أرهف السمع وأكابد في رفع الحيْـــف حاصرني القائد الريفي بجيش جمعه من قبائل الريف وقبائـــل جبالة، حوصرتُ حصارا لا ينتج إلا الاستسلام أو الرحيل.
بينما جند المجاهدين مرابط حيث الملعب البلدي لا يزال غيبا، حيث لا يزال الملعب رابضا على غيبه يحلم بإجراء مقابلة في كرة القدم بين منتخب طنجة من الدرجة الثالثة، وفريق ريال

مديد، يلعب لمنتخب طنجة المتألق لاعبون عفاريت، منـــهم حْميدو بلْفقيهْ وخايْ أحمد كازا وسالم والقـــدميري وعبـــد القادر الخراط وجاكوب اليهودي وأكسا النصراني، يشتاق شجر الصفصاف لسماع الزغاريد لنسوة مـــن الجمهـــور منقبات يلبسن الحايك ويشجعن فريقهن الطنجي، ثم عنـــد الانتهاء يتحولن مع الرجال إلى متظاهرين ينحـــدرون مـــن ملعب مرشان إلى السوق البراني حاملين شعارات تطالـــب بالاستقلال ورحيل الاستعمار..

تقرر الهجوم على حامية من الجند تتحصن عند قبور الرومان في رأس العقبة التي عند مِرْفقها الأيسر بُذرت بذرة ثانوية ابن الأبار.

تحركوا في حذر، ولما وصلوا وكانوا يتوقعون قتالا ومقاومة لم يجدوا جنديـــا واحـــدا وقد كان الجنود بين الحين والآخـــر يظهرون لهم، لم يجدوا استفسارا لذلك الفراغ وهم لا يزالون عند حذرهم، وبينما هم كذلك اكتشف أحدهم نفقا فنزلوه وتبعوا انحداره وهو متجه إلـــى حـــي أمراح وجْنان قَبْطان

والسوق الدّاخلي حتى أوصلهم مينائي ليجدوا الجنود الذين كانوا مرابطين في الهضبة قد ركبوا البحر إلى الضفة الأخرى

فرارا من المجاهدين، فروا في اليوم البئيس الذي تزعـــزع فيـــه وتململـــل متوجِّـــعـــا وأوشك أن يقع للمرة الثانية، وها قد وقع، ولكن بعد مائتين وثلاثة وثمانين عاما من تحريري من الاستعمار الإنجليزي ــ3ــ..

وبعد ذلك دعـــا "نابليون" اليهود إلى التوجه إلى فلسطيـــن ليتَّخذوها أرضا ووطنا لهم، تكرَّم عليهم بتلك الدعوة بعد مائتين وتسعة وستين سنة من حرق اثنين من المسلمين خالفا قانونا يحظر الاستحمام والختـــان والوقوف تجاه القبلة فـــي غرناطة، أُحرقا حيَّيْن في باب الرَّمْلة وشهد حرقهما رجال دين في يوم مهرجاني مشهود ــ4ــ.

تكرّم عليهم "بونابرت" وهو فـــي أوج غروره ظنّاً منه أنّـــه

بحملته على مصر والشام قادر على سلب شعب فلسطين ودولة الخلافة إرادة الذَّبِّ عمّا حول الأقصى والذَّوْد عن شعبه، ولما لم يفلح في حملته، وانهزم في جولته خمدت دعوته وأضحت مجرد دعوة، ثم سكنت كجمر الغَضا..

وفي جنح الظلام وُلِدت أفكار وتناسلت أخرى تبغي الوقوف على أرض لشعب لا أرض له، فتقرّر تجميعهم واستيطانهم في أوغَنْدا أو أيْرلنْدا، في غينيا أو كينيا، كما تقرّر إن لم يكن في أوغندا أو أيرلندا، في كينيا أو غينيا؛ منحهم طنجة..

طنجة الوديعة مجمع بحرين وعضُد مغرب عزيز.

أنا هي تلك المدينة الحالمة.

تحقَّقَ حلمي في الألفة لساكنتي، ولم يتحقق حلمي بعدُ لأصير جزيرة عائمة، ولكنني لم أملّ، وما ملّ من ركب الأمل..

تعاقبت عليّ دول وحضارات، وعبرت فوقي أفكار وثقافات ولم تستطع واحدة ملْك قلبي وأسْر فؤادي سوى حضارة موسى وثقافة عُقْبة وفكر طارق.. ظللت مرتبطة بشقيقاتي ولم أزل، سألتحم بعد ألف وأربعمائة عام بشبه الجزيرة الأيبيرية

كما كنت منذ ملايين السنين، لا أعترف بأجنبية "سَرَقُسْطة" و "غرناطة" ولا بـــ"لِسْبُوا و "لِشْبونة".. كما لا أقرّ بغُرْبة" ألميريا" و "إشبيليا"..

لا أزال أحلم بقطع الغربة ونزع صفة الأجنبية عن شقيقاتي في الضفة الأخرى..

تعاقبت عليّ دول متطاحنة لا تكون الغلبة فيها إلا للقوي، في خضم ذلك لم أمارس الظلم مع تلك الدول، ولم أتبنّ القطيعة استجابة لها، تكبر ساكنتي وتتنوع، تختلط أجناســـي وتتصاهر..

إذا حلّ الظلام على الطنجاويّ الحقّ وسكن الخلْق تحرّك قلب ابني مُفْعما بالحبور لغرس بذرة الحب في قلبه، يتعهدها لتشبيت جذورها واستنبات جذعها وإخراج أغصانها وأوراقها وثمارها حتى تصير دوحة الجنة، يهيم تحت ظلالها بممارسة الحبّ، حبّ ليس كأيّ حبّ، حبّ لمن يأبى الغدر، ويعطي قبل أن يسأل، يُقبل على من يدبر، ولا يدبر على من يقبل، حبّ في حبيبٍ كله وفاء ونعْماء، يدخل خلْوته في محراب من جذْعٍ

جذوره صفاء ونقاء، يتعبّد فيه بممارسة الحبّ، ويخشع فيه بملامسة الوَجْد، يهيم في ذاته وصفاته ولا يشبع من اللّذاذة..

أنا شمس المغرب قد عرفت غزوات كثيرة من الضفة الأخرى ولم أرض بها، يهبّ لنجدتي أبناء منتسبون لحضارتي، رفض الأندلسيون الأنجريون الاستعمار الإسباني فهبّوا لقتاله مجرد أن وطئت قدماه شمال المغرب، جاهدوا بالغالي والنفيس بغية طرده من بلادهم، وهبوا أرواحهم تلبية لنداء التحرير..

دعا مرة المولى إسماعيل إلى الجهاد فجاءه متطوعون من قبائل نائية، ولما فرغوا من الجهاد استقر بعضهم في صعيدي فأنجبوا ذرية وأوجدوا تجمعات تميّزت بانتمائها القومي كبني توزين وبني ورْياغل وبني سعيد وبحرايْن..

عرفتُ تجمُّعات للسود في منطقة "بوخالْفْ"، جلبهم السلطان المولى من السنغال لاتخاذهم خدَما وحشَمـــا فـــي

قصره..

عرفت أنا أمّ المدن العربية ذوي الجفون الأسيوية المطبقة على العيون، تقاسمت أمهاتهم جيناتها مع طنجاوة، بنات وفتيات من فيتنام الشمالية والجنوبية، من كمبوديا ولاوس وتايلاند.. استقدمهن الجنود الطنجاويون من تلك البلاد النائية في شبه جزيرة الهند الصينية، رجع من نجا من الموت منهم في تلك الحرب عقب هزيمة فرنسا عسكريا وسياسيا فخلّفوا ذرية في طنجة من زوجات من الجنس الأصفر. وعلى وقع الحلم الجميل تجمّع أناس كثيرون كما تتجمّع قطرات المطر في واد يكاد يجفّ لتولي فصل الشتاء عنه، يغشاه السحاب في الشهر المزاجي عند نقطة الانطلاق بشبه الجزيرة الأيبيرية، فيهم أسر وجيرة.. منهم مهاجرون مـــن أقاصي أوروبـــا، استقـــروا بإسبانـــيا والبرتغال، اقتربوا من السواحل والشواطئ ليُطلّوا من طرف خفي على الضفة الأخرى وقد استهوتهم بتفريخ الأمان فيها، يصاب الناس بمرض مومو ــ5ــ في أبدانهم، ويصاب اليهود أهل الجشع والخداع بمومو في ثرواتهم...

وتحت أجواء فقر خبيث ظل أحفاد الســامــري متربّصيـــن ببصيص من أمل يشعّ منه نور يحييهم من موت، ويطعمهم من جوع، يزحفون في أوروبا كالأفاعي، ويتنقلون في الأندلس كذبابة التّسي التسي. عرفت الضفتان هجرات عبر قرون عديدة ولم تزل، تخفُّ أحيانا وتسرع أخرى. وفي أواخر القرن التاسع عشر قرر يهود من الأندلس الكبيرة النزول إلى الأندلس الصغيرة فركبوا زوارق سرا تدفعها المجاديف باتجاه شاطئ مرقالة.

بحر مرقالة بشاطئ جميل مهجور لوقوعـــه في باديتي، مصبّ واد يخرج جنينا من جبال مُطِلّة على المحيط الأطلسي، يصعد فيه سمك البوري على وقع حفيف الشجر وزقزقـــة العصافير ويصل إلى حيث مقبرة الكلاب والقطط بمحاذاة النادي البلدي للفروسية؛ الذي يحتضر بتغيير اسمه إلى النادي الملكي للفروسية، وبتغيير صفته ملكا للشعب إلى ملكية الخواص.

يبدو الوادي من الأعلى كخصلة شعر لحسناء مضطجعة.

عند جزره يترك على الشاطئ أصدافا وقواقع غاية في الجمال مهجورة من طرف ساكنتها من المخلوقات البحرية، لا يزال السلْطعون يحمل فوق ظهره قوقعة يتنكّـــر بها خوفا مـــن هـــذا المتربّـــص الـــذي لا يستطيع ممارسة الحب لحمله قلوبـــا ثلاثـــة، وهل يحب من يحمل ثلاثة قلوب؟

يلتقط النساء والفتيات القواقع والأصداف ليصنعن منها عقودا وقلائد جميلة مُرصَّعة يضعْنها على أعناقهن وصدورهن، رماله الذهبية مرآة ناصعة، ومياه بحره غنية باليود وكم هي صافية، بِرَكُه الضحلة تمتلئ بالسمك الصغير والجمبري والربيان وبيوض القشريات والرخويات..

بين شقوق أحجاره وصخوره يقبع الأخطبوط والمُراي وأحيانا الحنكليس، يجمع الصيادون الديدان قبل أن يمدّ البحر مياهه لاتخاذها طُعْما للسمك، يهيم في الغيب الأفقي شباب حي المعدنوس بـ

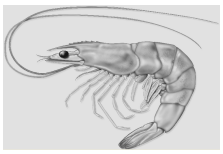

ويجمعونه لوالد المَمْدَري، يعينونه في صيد القَمْرون ليوقفوا سعيه في البحث عنه حتى يكتفي، يجمع لهم الديدان البحرية المستوطنة للصخور التي تغوص كلِّية فيها أو يغوص جزء منها في الماء عند المد البحري، أمُّ أحناش طُعْم يغري أنواع كثيرة من السمك، والجمبري والرّبيان لا يغريان إلا سمك "الشَّرْغو" و"الحدّاد" و"بوبْرادَعْ"..

((سّي محمد ها هنا كثير من الجمبري والربيان)).

ـــ لا تهيّجوا البركة، دعوها حتى أصل.

يغيِّرون للجمبري وضعـــه في البـــرك الضّحْلـــة بتهييج الماء والذهاب بصفائه حتى يصيدوه بسهولة.

للجمبري حوصلة الاتزان، لها فتحة على سطح ظهره، يدخل من تلك الفتحة حبات من الرمل هي حصى الاتزان؛ تعمل على إعادة توازنه إذا تغير وضعه داخل الماء، تتحرك حبّات الرمل في حوصلته، ثم تلامس الشعرات الموجودة على قرون الاستشعار فتعطي الشعرات الحسية تنبيها لمخ الجمبري والذي يعطي بدوره إشارة حسية منبِّهة للحيوان فيقوم باستعادة توازنه داخل الماء، وعند فقده لتوازنه عند المطاردة التي تؤخر استعادة وضعه قليلا؛ يسهل صيده والتقاطه..

أبوابي تفتح وتغلق عن عروس مُتوَّجة، عروس باسمـــة، خلف الأبواب تلك العروس، أنا هي، أنا العتيقة، أنا التي تحمل تاريخا مجيدا، أتألق بأضواء العابرين الذين كتبوا تاريخي بمداد من الذهب.

وقعت أنا حسناء المدن تحت ظُلل سود، استفاق أهلـــي في بداية القرن العشرين على وقع أجراس الكنائس، يشاهدون انتصاب الصلبان، ويسمعون خليط الألسن، أجانب قد سيطروا على الصناعة والتجارة والإدارة..

استقدموا المطابع، وأنشأوا الجرائد، وأقاموا المسارح.

زارها مخترع التلفون الأوتوماتيكي وأشرف على إنشاء مؤسســـة تليفونيـــة برأس المصلى فكانـــت أول تليفونكـــا للاتصالات السلكية في إفريقيا كلها، اشتغل معه إدريس بن الخيّال مولاي العربي؛ الشاب المولع بالسينما، ولكنه لم يكن يحظى بدخول قاعاتها فضلا عن مشاهدة أفلامها، ينزل من مرشان في رفقة إلى سينما روكسي وهي حديثة البناء لا تزال مُسيّجـــة بصفيـــح مليء بوصاوص أحدثتهـــا المساميـــر، يوصوصون محدِّقين إلى خيال متحرِّك يبهرهم فيتحوّلون بعد مشاهدته إلى سُرّاد يروون ما شاهدوا لأصدقائهم.

في اليوم الموالي اشتغـــل ابن الخيّال عن رفقائـــه بخدمة أبيـــه فقدمت امرأة في حاجتها وكانوا في ذي الحجة، فرح لطلبها

أبوه فطفق ينادي على راعيه، ثم طالبه منحها أعلى رأس من ذكور ماشيته، حَوْلِيّ كأن اكتنازه من ثلاث حوْليات، كادت تطير فرحا وهي غير مصدقة لما تسمع حتى كان كبشها بين أيدي أطفالها يلعبون معه ويفاخرون على أبناء جيرانهم وينتشون لانتطاحاته وانتصاراته في المعارك مع أكباش جيرتهم. وفي الغد جاءه الراعي يخبره بعودة الكبش الأقرن إلى الحظيرة، فتنبه مولاي العربي للحدث وقد عرف أن كبشه قد ذبح فقال للراعي:

"اكتم أمرنا واحفظ سرنا".

يجوب أحيائي وشوارعي سيدي المختار برأس عريان وقدمين حافيين، يطوف ويطوف حتى ينتهي إلى السوق البراني، يشدّ فيه انتباه سائقي سيارات الأجرة من الإسبان، فإذا سار نحوهم هرعوا إلى فتح أبواب سياراتهم وهم يتمنون منه أن يركب إحداها، أحيانا يركب وأخرى يعزف، فإذا ركب أشعل السائق محرك سيارته وخيّر سيدي المختار في وجهته، ولكن سيدي المختار لا يختار، إذ لا يسلك كما يسلك

العقلاء، ومع ذلك يشير، ينطلق السائق ويظل يطوف به دون ملل أو كلل حتى يشبع فيبادر إلى الكلام المبهم الذي يتحرك له رأسه فيفهم السائق أن كلامه مؤشر على رغبته في الوقوف حيث تكلم وأشار، حيث أعجم وبربر، فيتوقف ولا يهم مكان الوقوف، يتساوى وسط المدينة وخارجها، يعود سائق التاكسي متفائلا من فعلته متبركا بسيدي المختار غانما في يومه وغده ما يغنم زيادة.

يقدّم له الناس نقودا فتجد له أتباعا وعَسَسَة، يقصّ أثره الأطفال والشبّان لعلمهم أنه سيرمي بتلك النقود في مكان ما، فإذا رمـــى بها هبّوا متنافسين لجمعها، ثم اكتنزوا حبورا كأنما وُسمت وجوههم من الفرح زيادة بميسم الحسن قبل أن يصلوا إلى قلب المدينة لشراء الحلوى ودخول السينما..

تُقصُّ آثار مختـــار آخـــر فإذا هو صاحب فراغ مـــن الزوج والذرية، ولكنه رب حمار، يملك كنوزا من "البسيطا"، يجمع سيدي المختار كراء أملاكه ومداخل حانوته بالقصبة، يكدِّس العملة الورقية في صُرَر ويضعها في قفة دومية يعلقها في بيته،

ثم يتفقدها بين الفينة والأخرى، لطالما وجد الفئران قد غيرت معالمها وأتلفت بعضا منها، يحملها كما هي كلما اعتطبت أو تلفت ويبحث عن أحد أبناء الشريف المعصوم فيمنحها له ليستبدلها بأخرى غير معطوبة..

أزقتي العتيقة لم تعد تتعرّف على أبنائي، صدى اللغات يتردّد فيَّ ليمتح منه الفقيه دَميجو دون أن يبين، تتراشق الإسبانية والإنجليزية والفرنسية بحروف لاتينية من لُسْن الأجانب فتحرك ألسنة الأهالي لتقليدها، نبتت طوابق لا عهد للساكنة بها، أنيرت شوارع، وكتبت واجهات المباني التجارية والإدارية باللغات الأجنبية، أقيمت مدارس استقطبت عددا من أبنائي، بدا الجانب الثقافي حسّاسا أكثر من غيره فطفق أهلي يفكرون في إحياء التعليم وإعطائه شكلا غير الشكل التقليدي، راموا إلى إصلاح المدرسة الحبسية وتحويلها إلى مدرسة عصرية تدرّس ما يُحصِّن طنجاوة من الاستلاب الفكري والثقافـــي على خوف من رؤيتهـــم محلاّت اللهـــو والقمار وحانات الخمور وأوكار الزنا..

خافوا على أبنائهم فطفقوا يُدَعّون إلى إنباتها دَعّا، أعانهم على إنجاحها دروس وخطب العالم: محمد بن الصديق، حذّرهم من ولوج المدارس الأجنبية وقد ولجها عدد كبير من أبناء الساكنة، خطب وحرّض حتى حمل الأولياء على إخراج أبنائهم من تلك المدارس ليغيض السفير الفرنسي خاصة فيحتدّ عليه غضبا، أفسد عليه بخطبه خطته، لقد كانت أول بذرة بذرها الاستعمار الفرنسي في قلبي، توجه أغلب أطفالي للتعلم في المدرسة التي أنشأها الطنجيون من تبرعاتهم وأثمرت أكثر عند تأسيسهم للجمعية الخيرية الإسلامية وكانت الأولى على صعيد المغرب، أبت الجمعيـــة الخيريـــة إلا أن تبرهـــن للخيرية المسيحية التي أنشئت قبلها على مدى أحقيتها في العناية بالمسلمين وجلب ما ينفعهم من أطباء لمعالجة مرضاهم وذوي العاهات منهم.. اتُّخذت مأوى، كما اتخذت سكنا للطلبة والعلماء الواردين علي من خارج مدينتي، اتُّخذت مدرسة لتعليم القراءة والكتابة لصبيان المدينة، أول مدرسة على صعيد التراب المغربي تدرِّس القرآن والفقـــه والنحـــو

والحساب والأدب..

تدرِّس بعض اللغات الأجنبية كالفرنسية والإسبانية، ولكن على يد من يُؤْمَن جانبه؛ إذ لا أمان حينها من التنصير إلا في الذي يؤمن بدين طنجاوة، تطوّع أجانب وحظوا بالقبول وكانوا أطبـــاء مـــن جنسيـــات مختلفـــة منهـــم السينيور: "سطينر Stener" و"سردييرة Serdiera" و"ريك Ric " و"سانتشيز Sanchez Coda " وطبيب الأسنـــان "ككان Kakan" والصيدلي "كوميث مرتين Gomez Maarten اقترحوا مقترحا لم يلق آذانا صاغية رغم أهميته القصوى، فكّروا في إنشاء جمعية تُعْنى بعلم الأمراض ولم يرغبوا إلا أن يكونوا أعضاء نشطين في جمعية الأطباء والصيادلة الملحقين بمؤسسة الجمعية الخيرية الإسلامية، كما أبدوا نيتهم في إنشاء مجلة مغربية تُعْنى بعلم الأمراض، ولكن لم يكتب لها النجاح، تأسست المدرسة في سنة ألف وتسعمائة وإحدى عشر، وكانت كل من جمعية الهلال والشروق اللتين تعنيان بالرياضة والمسرح تحوّلان مبالغ ماليـــة للجمعية الخيريـــة من ريـــع

أنشطتهما الثقافية والرياضية، وكان من المدرسين فيها الفقيه: أحمد الرهوني، ومحمد بن العربي الطريس، والعلامة: محمد الجباص، والقاضي: العربي التمسماني، والأديب: الحسن الغسال، وصاحب "مسيد" بوادي أحرضان الفقيه: زِوْزيوْ، ومدرِّس مادة الحساب والفرنسية مؤسس جمعية الهلال المعروفة بأنشطتها المسرحية الأستاذ: عبد الباقي بن يحيى..

لقد أثمرت المدرسة بأن خرّجت مثقفين ونجباء منهم: أول روائي مغربي كتب بالعربية لم تعرفه كتب بيوغرافيا **Biografía** الرواية المغربية، لم يذكروه عند ذكر الروائيين المغاربة وروايته لا تزال في رف من رفوف مكتبة عبد الله كنون فوق صعيدي وقد كتبت في سنة ألف وتسعمائة وست وثلاثين، فإن زرت المكتبة وطلبت رواية: "أشياء لا تنتهي" لابني وحبيبي عبد القادر السميحي فستحصل عليها، أرّخوا لرواية: طه، وهي أول وآخر رواية للحسن السكوري، وأول رواية يُؤرَّخ لها مغربيا صدرت سنة ألف وتسعمائة وإحدى وأربعين عن مطبعة الفنون المصورة بالعرائش، ولم

يؤرخوا لجهلهم لأول روائي مغربي وهو: عبد القادر الشاط، كتب روايته في طنجة وهو من مواليدها بالفرنسية سنة: ألف وتسعمائة وثلاثين، وصدرت في باريس سنة: ألف وتسعمائة واثنين وثلاثين بعنوان:

Mosaïques Ternies

فسيفساء شاحبة بأربعة عشر فصلا، أولها:

Le Jour De La Prière

وآخرها:

Alami, Solda Du Maghzen

أنبتت المدرسة قيدوم الصحافة المغربية: محمد العربي الزكاري، وأنجبت عميد الموسيقى الأندلسية بالمغرب: محمد العربي التمسماني..

وأنت منحدر من سيدي المخفي إلى السوق الداخلي، ثم صاعدا إلى القصبة ستجد سجنا ومحكمة ومستشفى، تجد ملاجئ ومرافق عديدة، وخلف أسواري باديتي؛ منها مرشان والمطافي والجماعة والدرادب وجامع المقراع والمصلى والسواني وخوسافات ومسْترْ خوش وفال فلوري...

نزل اليهود فـــي هجرة سرية شاطئ مرقالـــة، ثم تسللـــوا كالجرذان عبر واديـــه ليكتشفوا أراضي شاسعة خاليـــة من الساكنة، بها بُيَيْتات قصديرية وعرائش وأكواخ هنا وهناك لا تُتَّخذ للسكنى، تستعمل لحفظ الأغراض التي تستعمل للفلاحة والزراعة والعزق والتشذيب، وغالبـــا ما يستعملها الرعيان.. عن يمين الشاطئ الجبل الكبير وخميلة الرميلات وغابة مديونة الأنينة من اغتصابها وتفويتها ظلما وعدوانا. وعن يساره الدرادب ومرشان وعين الحياني ومستر خوش وبوبانة.. استوطنوا تلك الأراضي واستغلوا غيرها بوضع اليد عليها دون علامة، زحفوا كالأفاعي في الوادي وتربصوا كقطّاع الطرق في الخلاء. وضع "سباطي" **Sabati** الفرنسي يده على أرض ابتاعها من لابسونا **La Vesona** الإنجليزي وهي التي يقـــام عليها النادي البلدي للفروسية، صارت في ملكية الوريثة الوحيدة للسلطان المولى عبد العزيز كما يعتقد الناس؛ إذ ظلت ابنتـــه فاطمة الزهراء العزيزية رئيسة للنادي تستغله لعشرات السنين حتى توفيت عن غير خِلْفة ولم يُحفَّظ

العقار إلا بعد وفاتها، إذ سُجل في سنة ألفين وسبعة طبقا للرسم العقاري رقـــم: 92991 / 06، يتمنى أهل طنجة درءا للتلوث والاختناق أن يبادر المجلس البلدي لضم العقار إلى الملكية العمومية إذا كان قد مُلِّك بطريقة غير شرعية، أو يبادر لشرائه وشراء ما تبقّى عاريا من لباس الإسمنت كـــ"المصلى جردان" Musala jardin وتركها منطقة خضراء، وإذا لم يقو على شرائها ولم يرد الاقتراض لحسابها ينوون الاكتتاب بشأن كل ما تبقى من عقّار عار وشرائه لتحويله إلى مناطـــق خضراء مع سَنِّ قانون يحفظ عليها خضرتها أبد الآبدين حتى لا يأتي لصوص كما العادة فيفوِّتونها بحجة أو أخرى. لأهلي ماض وحاضر في المعاناة والمكابدة، فلقد فوَّت المجلس البلدي في شخص رئيسه "الرّقيوَقْ" قصر المؤتمرات بمرشان إلى وزارة الداخلية، ثم تحول بعد ذلك إلى القصور الملكية وقد حرم منه أبنائي، حرموا من الاستمتاع بمنطقته الخضراء، ومن حضور التظاهرات الثقافية كالمحاضرات والندوات كما كان سابقا.

وقبيل حكومة التناوب حل بي فتح الله ولعلو، الوزير الذي انضبع لنتن رذاذه شبيبة الاتحاد الاشتراكي، حاضر بـــسينما موريتانيا، ولما فُتح المجال للنقاش استلم الميكروفون ابني البار وفارس طنجة فنسف ما أورده الوزير من فكر يعالج به قضايا اقتصادية، فما كان ممن تضايقوا من تدخله إلا أن نزعوا من يده الميكروفون ولم يسمحوا له أن يكمل، ليس قمعا طبعـــا، وليس ديكتاتورية قطعا، لا تقولوا ذلك، بـــل هـــي ثقافـــة النضال. وفي حكومة التناوب ابتليتُ بدجّالين خبثاء، لطالما كذبوا على أعضاء حزبهم قبل كذبهم على شعبهم وعلي أنا، أنا التي أحملهم ويتأذى صعيدي بحملهم، حملهم ما كان ينبغي أن يكون إلى مزبلة السياسة إذ هم مكتنـــزون بقمامتهـــا، يتلذذون بعصارتها ويتمطقون لحموضتها، بل إلى مزبلة الفكر والأدب، فكم ضربوا على الطاولات، وكم أخرجـــوا مـــن رذاذ، وكم أمطـــروا مـــن ســـباب تسجيلا لنضالهم المـــشبوه، ثم لمـــا منحوا حقائب وزارية؛ خرج منـــهم

الوزير الأنيق في مظهره، الوضر في فكره وثقافتـــه، طفـــق الوزير التقدمي المتهم بالـــ م ث ل ي ة يفوِّت غابات الجبل الكبير في صفقات بالملايين، تركبه الخصخـــصة المتطايـــشة، والانتهازية المتسافهة، كمـــا

خرج منهم الوزير الوصولي شاعرا مفوها يبيض شـــعرا مكيافيليا، شاعرا لصّا مرتشيا ثريّا دونيا عن بَعَرات خيل إسطبل بمكناس ليـــدوس علـــى الثقافة بحذائه الرجعي الحداثي تنمية لثروته وإراحة لمؤخرتـــه من "سينطو" Ciento الموتوسيكل الذي أهرأ سوأته، وأنبت الأورام في إليتيه..

حيازة اليهود للأراضي بوادي اليهود الذي تسمّى باسمهم، وحيازتهم للأراضي بالجبل الكبير والرَّهْراهْ والدَّرادبْ وعين الحيّاني وبوبانة وغيرها خارج الحَضَر؛ حيازة غير شرعية، لم يأبه لهم أحد من الساكنة التي لا تكاد تذكر، الخلاء يبقى خلاء، تلك مقولة أبنائي عمّرت معهم حتى أضحى كثير

منهم لا يملك شبرا من أرض، ظلوا مكترين في مدينة لم يكن أحد منهم يرضى اتّخاذ "كاساباراطا ــ6ــ" سكنى له لبعدها عن المدينة، لم يكن بمقدور اليهود استغلال الأراضي التي حازوها، لا طاقة لهم بها في الفلاحة والزراعة والإحياء، كما لا رغبة لهم بالاشتغال إلا بالتجارة، ولكنهم أغروا المهاجرين الجدد من المغاربة باستيطانها، يُفْهمونهم أنها تعود إليهم وهي ليست لهم وأنّى لجماد أن يخبر بحالــه مهاجــرا جديدا؟

كانت الهجرة من بواد قريبة وبواد بعيدة، من بواد حبلى بالطهر والصفاء قد ذبح الجبن فيها وهوى النفاق، من قبيلة أنْجرة ذات الاسم المحرَّف عن المَنْجَرة الذي يعني مكان النجارة في وادي مدينة القصر الصغير عند قصر المجاز اتّخذه جُند الفتح على عهد طارق وموسى لبناء السفن التي تعبر البوغاز لحمل حضارة النور إلى غيرهم، ومن قبيلة وَدْراسْ وبني مْصَوَّرْ وبني جرْفْطْ وبني حَرْشين وغيرهــا، ومن أبنــاء الريف المنبــت للشهامة والرجولة الإمزوريون والتوزانيون

والاغزناويون والمطالسيـــون والكبدانيـــون والصنهاجيـــون والبقيويون وبني بشير وبني عمارت وبنـــي يطاف والقلعيون والشيكيريـــون والورياغليون والزرواليون وغيرهـــم، مـــن حضَري وباديتي نبت حي بئـــر الشعيري ومبروكـــة وأرض الدولة ببني مكادة.. كان المهاجرون خالين من أية معلومة تتعلق بحقيقة أمر ملكية اليهود للأراضي التي يقيمون عليها، أو التي يقيم عليها مغاربة بإذن منهم، فلقد رحل أكثرهم عنها إلى الحضر، انتقلوا إلى وسطي حيث العمران واشتغلوا في صرف العملات والإسكافية وصنع البراذع والحرف الوضيعة، حتى حرفة العطارة نافسوا عليها لعلمهم جهل الناس بالمعادن الثمينة فاستبدلوا الذهب على اعتبار أنه نحاس ببضاعة زهيدة واغتنوا بغش الناس واستغفالهم وسرقتهم. بين الحين والآخر ينزلون إلى تلك الأراضي لأخذ الغلال من قمح وخضر وفواكه، وليثبتوا لمن انضمّ لتلك الأسر أو جاورهم فيها أنها أراضيهم، يستغفلونهم فيتركونهم عليها يفعلون ما يشاءون إلا بيعها اعتقادا منهم أنها ليست أراضيهم، لم يكن

لأحد من الملاّك المزوِّرين وثيقة تثبت ملكيته لقطعة أرض واحدة، صحيح قد ملكوا داخل المدينة وخارجها بوثائق، ولكنهم مارسوا الحيل، إذ كان محظورا عن أي أجنبي شراء أراضي أو عقارات في طنجة، فكان الأجنبي إذا أراد ابتياع أرض أو عقار يستقدم مغربيا ويدفعه للشراء والتسجيل باسمه، ثم بعد الإجراء الشكلي القانوني يحوّل كل ذلك ويثبت البيع له بواسطة رسم يسجله في قنصليته بعيدا عن المخزن والعدول، ولما كان مؤتمر مدريد سنة ألف وثمانمائة وثمانين خوّل الأجانب شراء الأراضي والعقارات وفق قوانين البلاد كما نص عليه المؤتمر وبموافقة المخزن أيضا؛ الشيء الذي لم يكن يحصل إلا قليلا، فكان الأجانب من اليهود وغيرهم يسجلون رسوم البيع في قنصليـــات بلادهم ليحمـــوا بذلك أملاكهم، وإذا أرادوا بيع أراضيهم وعقاراتهم لمن يرغب فيها يكن لهم شهود مغفَّلون من المهاجرين الذين لا يعرفون شيئا عن حقيقتهم، يستعملونهم للشهادة إن بيعـــا وإن ابتياعـــا، وهكذا غشوا العـــدول والشهـــود فملكـــوا ووثّقوا فـــي

القنصليات الأجنبية مغتنمين مصيبة السنين والجفاف التـــي ضربت طنجة قبل ذلك بسنتين على عهد الحسن الأول، واستمر أثرها عند مؤتمر مدريد وبعده فكان توزيع الخبز والحريرة يجري في الصباح والمساء، وكان الماء المجلوب من "حسنونة" ومن جهات أخرى لا يكفي إذ تغيض المياه في فصل الصيف عميقا في الأرض وتجف العيون، ولشراء الماء الشروب يعوز لشراء برميل واحد منه ريالين حسنين من النقرة، وأنى للساكنة بربع ريال فكيف بنصفه. أرسل الحسن الأول أربعة خبراء في مد القنوات لتزويد طنجة بالماء الشروب ففشلوا، ثم كلف الأجانب باختيار مهندس منهم يحقق لـــه فكرتـــه، فتحققت.. اغتنم اليهود مصيبة المجاعـــة والجفاف وصدق عليهم قول الشاعر: مصائب قوم عند قوم فوائد، فابتاعوا من الناس وارتهنوهم.. ظلوا على حالهم حتى نشوء الوكالة الوطنية للمحافظة العقارية... تجمّعوا وامتازوا كعادتهم بالانعزال للهمز واللّمز دون أن يكون لهم ملاّح. إذا كان اثنان منهم في مكان عمل أحدهما أو في ممر عام أو

عند بقالـــة أو سوق ورمقـــا ابْناً لي يطلقـــون عليه: سيدي "الْمْشْلْم" يقول أحدهما لصديقه سأجعل من ذلك المسلم أضحوكة، سأجعله يرقص تحت طلبي كالسعْدان، هيّا نتلهّى به، وحين يصل ويسلم ينطق أحدهما وهو كاذب فيقول له: ((لقد ذكرناك منذ قليل فـــ "ذْرْكْلْ دركل" عمرك طويل)). ويشرع سيدي "الْمْشْلْمْ" بالرقص والقفز مكانه ملبِّيا يتفاءل بطول العمر وهما يضحكان عليه ويسخران منه، ثقافة راعِنا هي ثقافتهم، تلازمهم إلى القبر لكرههم طه وأتباع طه. سكنوا متجاورين ولكن في أحياء ليسوا فيها وحدهم، لا يختلطون بالناس إلا في الأماكن العامة لتبادل العلاقات معهم ولطلب أعمال وضيعة، لهم أسرارهم وخصوصياتهم، حتى أن أُكْلة الحمّص المعروفة بكلِيْنطي **Caliente** كانت من بنات أفكارهم، فلقد تقرر لديهم مساعدة بعضهم بعضا، كان الفقير منهم يأخذ دقيق الحمّص ويخلطه بالماء ويضع فيه ملحا وزيتا، ثم يأخذه إلى الفرّان في صحن من الزنك أو القصدير، وحين ينضج يخرج بـــه إلـــى قلب المدينـــة حيث المقاهـــي

والتجمعات يبحث عن بني قومـــه وهو يصيح: ((كلينطي، كلينطي Caliente.. سخون وطري.. كلينطيطا..)). يردد كلمة إسبانية يستعملها اسم فاعل يشير بها إلى أن ما يبيع ساخن، ثم تغيّر الحال وحلّ العرف فصار اسم الفاعل اسم عَلَم على مسمى. فإذا رآه قومه نادوا عليه، وإذا سمعوا صوته وكان لا يزال غائرا في زقاق ضيقة افتقدوه حتى يحضروه إلى مجلسهم، يبتاعون منه ما أحضر حتى تنفذ سلعته، وبعد ذلك قلّدهم بعض المهاجرين إلي فشرعوا ينافسونهم على كلينطي، ثم استغنى عنه فقراء اليهود وقد صار أكلة شعبية في ربوعي كلها ولم تزل.

وحين أصبحتُ مدينة دولية وجد اليهود تعاطفا من الاستعمار خصوصا الإنجليز، وجدوا في الاستعمار الدولي فرصة للانحياز إليه فراموا إدارته وبادروا إلى طلب توثيق الأراضي التي ملكوها حيازة في غفلة عن أبنائي، فكان أول عقار محفّظ ومسجَّل رسميا فـــي الوكالـــة الوطنية للمحافظة العقارية والمســـح العقاري فـــي الرابـــع والعشرين من

أكتوبر قبـــل قدوم "تشرشل" وإقامتـــه بفندق المتره بخمسة أعوام ـــ7ـــ. كان العقار الأول في التحفيظ بمدينة طنجة عبارة عن فيلا في اسم رجـــل فرنسي يدعى: بوسك هنري مارويس بابتستان، **Bosc Henri Maruis Baptistan** وبتوثيقها من طرف الإدارة الاستعماريـــة صارت الأراضي التي استولوا عليها أراضي لهم، والوادي الذي نزلوا فيه بهجرة سرية واديهم، لهم عليها وثائق إثبات منحها لهم الاستعمار، لقد كان تعدادهم في المغرب كله عام ألف وتسعمائة وخمسة عشر؛ تسعة عشر ألفا، نقص عددهم في إحصاء سبعة وعشرين وتسعمائة وألف إلى؛ خمسة عشر ألفا. وفي ثلاثة وثلاثين وتسعمائة وألف ازداد نقصهم فصاروا؛ ستة آلاف وأربعمائة وثمانين فردا، ثم ازداد في إحدى وأربعين وتسعمائة وألف فوصل إلى؛ سبعة آلاف ومائة واثنين، ثم تضاعف عددهم في سنة اثنين وخمسين وتسعمائة وألف إلى؛ خمسة عشر ألفا، وظل كذلك إلى سنـــة خمـــس وخمسيـــن وتسعمائة وألف. انقلبوا في أحيائي بين ضيق وفرج، يمعنون

في إنشاء طبقات من الثروات محاكاة لأجدادهم، لن تجد في البشر أحرص النـــاس علـــى حياة مثلهـــم، يعشقون الكنز ويقدسون الذهب والفضة، يتصلون بأبناء عمومتهم في شبه الجزيرة الأيبيرية ويغرونهم بالاستيطان حيث هم، يراقبون ما يجري ويساهمون فيه بالخديعة والتجسس والدس.. لم تخل مؤامراتهم قديما وحديثا من إفساد وتضليل، شجعوا الجهل وركبوه منذ دخولهم المغرب في القرن الثالث قبل الميلاد، ولما أشرقت حضارة العلم والنور على ربوع المغرب ركبوها لإفسادها من داخلها، ولَمّا عرفوا موقف الإسلام من تقديس الأضرحة، ورأوا الاستعمار الفرنسي يشجِّع الزوايا وينفخ في الطوائف اخترعوا لأنفسهم أسمـــاء وأضرحـــة، فصار لهـــم قدّيسون وأولياء وصل عددهم في بعض الدراسات إلى ست مائة واثنين وخمسين وليّا، منهم: الرابي عمران بن ديوان بمدينة وزان. وللاّ سوليكة ــ يهودا بن العطار ــ، ومنشـــي بن ديان، وفيدال سرفاتـــي، وهارون مونصونيغـــو بفـــاس. وإسحاق بن شتريـــت، وأبراهام أمسلم بالدار البيضاء.

وابراهام مولْنّاس بأزمّـــور. وباروخ طوليدانـــوا، وحاييـــم مساس، ورافاييل بيرديغو بمكناس. ورافاييل النقاوة، وأبراهام طوليدانو وموشي الباز، ومردخاي كوهن، وأفراييم مايمران بسلا. وشالوم زافراني، ودافيد بن باروخ، وبنحاس هاكوهن بتارودنت. وإسحاق بن وليد، وابراهـــام بيباس، ويهـــودا حلفون بتطـــوان. وشيميـــول بوحصيرة، وإيليعازر دافيلا، ويوسف الماليـــح، وإلياهـــو ملخـــا بورزازات. وابراهام بوحصيرة، ومسعود بوحصيرة، وموشي الترجمان بالريساني.. ولكن أسماء الأولياء والأضرحة لم تكن جميعها خالصة لهم، بل كان فيها ولا يزال ما يتنازعون عليها مع المغاربة، الأولياء الخالصون للمغاربة خمسة عشر وليا يقدسونهم معهم وهم مسلمون خُلَّص كـــ: للاّ جميلة الأسطورية في منحدر مرشان وقد أضحت قابعة تحت طريق معبدة من مينائي إلى شاطئ مرقالة، وسيدي بلعبـــاس في سلا، ومولاي المكي بن محمـــد بالرباط، وسيدي رحّال بسطّات.. وتسعون وليا يهوديا عند المغاربة، منهم:

أبراهام أوريور المعروف بـــ: سيدي إبراهيم، ويحيا بن يحيا المعروف بـــ: سيدي قاضي حاجة.. وستة وثلاثون يتنازعون فيهم، هذا ينسبه إلى اليهودية، وذاك ينسبه إلى الإسلام، منهم: سيدي مخلوف، وسيدي إبراهيم، وسيدي بو الذهب، ويحيا بن دوسا.. كما لم تخل مؤامراتهم ودسائسهم من تأثير في الحرب العظمى الأولى وفي هدم الدولة العثمانية، ولم تخل من تأثير في الحرب العظمى الثانية وقد انخرط في الجيش الإنجليزي كثير من شبابهم ومن صعيدي تَمّ نقلهم، ساهموا في كل عمل خبيث، وراموا كل فعل خسيس حتى هجْرتهم إلى فلسطين قبل قيام الدولة الصهيونية، وعندها، ثم بعدها..

نشطوا في تجميع بعضهم بعضا إلى أن ضاقت بهم دور من جلبهم من بني قومهم فاحتلوا هضبة تطل على الشاطئ البلدي واستوطنوها ينتظرون الباخرة التي تقلّهم إلى إسبانيا، ثم بعد ذلك إلى فلسطين.. وأنت مار بأمكنة تجمعهم. وأنت سائر في شارع كروسيوس **Grucius** حيث يقام في الأفق الغيبي نزل عمر الخيام وفندق بريستـــول **Bristol** بشارع

موليير Molière ثم الأنطاكي؛ تشاهد رجالا يغيضون في جلابيات قصيرة بلون أسود لا يخفي الوسخ الذي يغشاها وقد تراكم في طبقات زادت من سمك الجلاّبية، من يتزوي تحتها أكثر قذارة ونتانة منها، رجال ونساء وأطفال يتخذون مراحيض لهم في العراء دون انستار عن الأعين، لا مناديل ورقية؛ إذ العصر ليس عصرها، ولا هي من ثوب؛ إذ العصر عصر الرقاع، لا يستعملون قطرة ماء واحدة لتنظيف سوءاتهم، ولا يقبلون التطهُّر بالصّعيد الطيِّب لأنه من شِرْعة أبغض الناس إليهم، حمى المستوطنة تسكنه ريح الخراء والبول.. يستوطنه البراغيث والقمّل والذباب..

يستأسد فيها الجرذان والفئران والبعوض، حتى طالبوا الهوى لا تنصرف أعينهم تلقاء اليهوديات لقرفهم من وسخهن رغم الخلالهن اللافت وإغرائهن الصفيق، ومن يسقط في شَرَكهن تعْتطب في أنفه خلايا الشمّ فلا يشمّ غير ريح قذرة، تتبعه حيثما حلّ وارتحل، بين الحين والآخر يستفسر بعض أصدقائه عمّا يجد، فلا يصدّقهم، لا تبرح الريح النتنة أنفه بالمرة وكأنه

قد داس بنعله على القاذورات، وإذا تحول إلى سارد شرع يحكي عن قلة حيائه ما وجد من أنثى يهودية فاقدة للأنوثة؛ يصف مجامعتها التي لم تتم حتى تنقص لامتزاجها بروائح قاء لها فوق جسدها وقد بزّت بها أنتن الكوانيف.. لا وجود لمخلّفات الطعام، يبيتون في العراء متربصين، تحكم إذا نظرت إليهم؛ أنهم دراويش، ولا تخطئ الحكم بالدروشة في بؤسهم ومعاناتهم، ولكنك إذا تفحصت نواصيهم أو دخلت في حوار صريح معهم؛ رأيت عيونا غادرة، واكتشفت قلوبا قاسية، ووقفت على نوايا إجرامية.. يمضي عليهم اليوم والأسبوع والشهر والشهران ولا بشير في الأفق يمخر العباب ليدخل الفرحة والبهجة على قلوبهم. لا يملون لإدراكهم أملهم بعد حين. لقد صُرِفت أنظارهم عن وطن أوغندا وأيرلندا وكينيا وغينيا وطنجة إذ قد رسم لهم مخطط احتلال أرض شعب وطرده من بلاده؛ فلسطين.

يديـــر هجرتهـــم شبكة منتشرة في كل المغرب بزعامـــة "بن شمّول"، لم يقنطوا حتى ابتدأ تهجيرهم في سنة ألف وتسعمائة

وثمانية وأربعين واستمر بطيئا في عهد محمد الخامس حتى زمن الحسن الثاني الذي سهّل هجرتهم وأدار عجلتها بسرعة وقد أودعوا عنده وثائق قيل إنها للمقايضة تثبت تملّكهم لأراض شاسعة واسعة في منطقـــة مانيبوليـــو وفيلاهاريز والبلايـــا ومالاباطا.. مكث من مكـــث منهم فوق صعيدي حتى حين، أخلدهم إلى ترابي مصالـــح وأعمال، قوت أبنائي وحاجياتهم كثير منها بأيديهم، تجارة الذهب والفضة لا ينافسهم فيها أحد، منهم من ولد في إيطاليا، ثم انتقل إلى بلجيكا وسافر إلى مستعمرتها في الكونغو للتجارة في الألماس والأحجار الكريمة ليستقر بعدها فوق صعيدي، سكنت أسر يهودية من أصل إيطالي بمحاذاة مينائي، اشتغلوا في صياغة الذهب والفضة واتخذوها حرفة لهم، يستقدمون الأحجار الكريمة ويدخلونها سرا، شوهد مرات عديدة نساء يهوديات يوزعن النقود على الأطفال، فعل غريب وكرم أغرب، فهيا نعرج للاستماع إلى امرأة تتقدم نحو الأطفـــال تنادي بأسمائهم: ((محمد.. عبـــد السلام.. مصطفـــى.. أحمـــد.. سعـــاد.. آمنة.. الزهرة..

تعالوا)). يهرعون إليها فرحين فتشرع في توزيع "البيسيطا" عليهم وهي تقول: ((لا تنادوا علي باليهودية، ولا تنادوا على أبنائي باليهود، هل ستفعلون؟ فإن فعلتم منحتكم النقود دائما؟ نعم، أم لا؟)) ((إيه، إيه)).

تخشى أن تنعت أسرتها باليهودية والجنرال فرانكو في أوج قمعه لانتفاضة "الباسكيين" حتى لا يأخذ أحدا من أبنائها للحرب كما يفعل بأهل المناطق التابعة له.

فصل:
تأبّط نصف شرّ
قطعة:

ظلت الجريمة سرا تطويه العقود إلى أن أقر بها صاحبها عندما حضرته الوفاة..
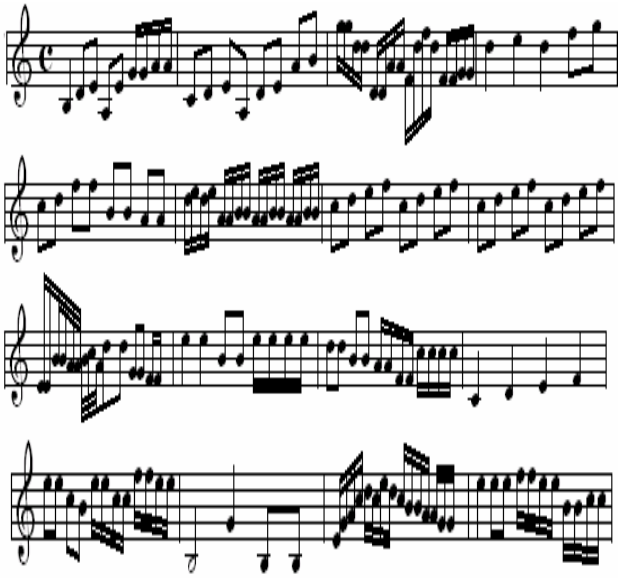
شاطئ مرقالة الساحر
- طنجة -

جلس إلى سمين السنّ أعْجفـــه، قصد المتدلّي في عمـــره كثمرة تين اسودّت وتشقّقت، حَمُضت بالارتشاف والنَّقْر، ثم جفّت، يسكنه الشوق لحكاية يُشنّف بها سمعه، يسرد عليه حكاية جميلة بها من الحميمية لما جرى في طنجة النصرانية؛ أشياء كثيرة، وكلما كان بمزاج صاف يستحيل معه الشاب المقراعي إلى صفْوان يقتعد ذاكرة شابة تشعّ منها النصاعة فتدهن محيطها بالصفاء، سأله وقد غطس في المفاضلة بين جيله وجيله يستفزه علّه يفيض بحديث شيّق يلتقطه كما يلتقط الطائر حَبّه، أو يطربه علّه يتحول إلى طير مغرِّدة، عندها يشعل فضوله ويوقظ جمله فيحمله على الانطلاق بسرعة الرياح الثائرة قرب المناطق الاستوائية؛ ــ8ــ إلى ماضيه فيزل معه إلى قاعه كالطائر المائي رفقة ثعلب الماء ــ9ــ باحثـــا عن غذاء عاطفـــي أو عشاء ذهني، ثم يصب

زيت النشوة عليها فينطلق كمذياع حرَّ بعد احتراق الحنين إلى البطاريات فيقول ويطنب، أو يقول فيوجز، أمسك بأذنيه ومنحه سمعه، لملم ذاكرته في ثوان بقدر توابع المشتري، ثم ابتدأ يسرد: قبل ولادة المَمْدَرِي بعشر سنوات، وبعد غرق التيتانيك سنة الحماية ــ10ــ باثنين وثلاثين سنة، وفي حي السمارين بطنجة حيث يجلس صرّاف على كرسي إلى جانب منضدة عليها تلفون عتيق يتلقّى أخبارا عن أثمنة العملات ويوغر في التبادلات النقدية للبسيطا والليرة والفرنك..؛ مررتُ عليه، أمرّ إذا قصدت السوق الداخلي فأحيّيه إذا لم يرمقني، وغالبا ما لم تكن تفته حركة مارّ من الطريق فتجده يحيّيك قبل أن تقترب منه، أو قبل أن تراه، يطلب مني القعود، ولا أقعد إلا إذا لم أكن محمولا على عجلتي، أظل عنده وهو يستفسرني استفسار المخبر الذي يغبى في سلوكه دون أن يتفطّن له، وجميل أن لا يتفطّن ليُعْلم لمن لا يعلم، تمتلئ شمس المغرب بأجناس كأنها نظائر ذرات متسكعة ــ11ــ.. مررتُ به في يوم من أيام الربيع الجميلة رفقة عدد

بقدر جميع المصادر التي وردت في كلام العرب على وزن تَفْعُلَة؛ فلم أقف عنده، نزلتُ نحو الأسفل حتى وقفت عند تاجر من نفس ملّته؛ وما أكثرهم في طنجة الدولية، محل تجارته معدّ لجلوس الزبناء والأصدقاء على هيئة لا تترك عين أحد تضلّ فتسقط على ما تحت المنضدة من أغراض، إلى جانبها كرسي لم يخاصم كرسيا على صناعته من غير جذوع الدَّوْحات وفروع الشجر، لا يصطف مع الكرسي الذي يجلس عليه، فإذا قرر الزبون أو الصديق النهوض والمغادرة استدبر التاجر واستقبل الباب في تؤدة ولّدتها هيْئة المحل؛ وقد بدت مرغوبة.. ظهر عليه سلوك تنبّه له شاب مَقْراعي في نفس اليوم الذي تمّ فيه اكتشاف الحمْض النووي ــ12ــ؛ فتتبَّعه وأمعن في تتبُّعه مدة طويلة حتى تمكّن من الوقوف على نصف سره.. ضبطه يلوِّح بيده اليمنى وفي كفّه مِكْنسة دومية صغيرة تُسْتعمل للدهان، يخرجها من تحت طاولته ويلوِّح بها كما لو كان ينْفض شيئا منها على المستدبِر مجْلسه، لم يفهم الشاب علّة سلوك التاجر وقد ارتاب في أمره فبدأ

يفتعل أساليب ويركب تنوُّعها حتى وقف على حقيقة فعلته.. جنّ جنون الشاب وهبت عليه رياح الغضب فقصم حِلمه، والتقم غيظه.. وحين ركب نقمته تسلّل ليلاً إلى بيت التاجر اليهودي بحي أَمْراح، ألفى فيه إبليس يتوضأ للصلاة ولم يصلِّ قطُّ، تورَّم عمره وقد أُعْمر فبات من كهولته يئطُّ. قام لصلاة الجنازةِ، على الرُّوَيْبِضاتِ، مدّ جثامينهم في مسجده، ثم صاح: لقد صحّ وعد ربي فيَّ، فالله أكبر، وتحقّق وعدي فيكم، الله أكبر، أمتُّكم وأنتم أحياء، الله أكبر، فعشتم، جِيَفاً متكلِّمة، الله أكبر، كبْكبْتُكم في النقمة، الله، أكبر، فلا رحمة الله عليكم آمين.. قوموا يا أبنائي، لصلاتكم، وليؤمّكم أشطنكم، احملوا النعوش إلى، مطرح النفايات، احملوها في مهابة، حتى يظن أنها، إلى روضة، أسرعوا بها إلى، المصبات، واطرحوها، في القاذورات، اغسلوا الجثامين، بالمياه العادمة، وعجِّلوا، إلى المقبرة، احفروا قبور الجيف، ولتكن في الزبالة، جيرة للنجاسة. تسلّل لواذا فاقتحم منزله وقد تأبّط نصف شرّ، ثم انْقضّ علـــى التاجـــر اليهودي فأرداه قتيلا، وحين

كشفت زوجه جريمته ما وسعها إلا التفكير برجليْها وقد عرفته لأنه جارها القريب، فزعت من الدماء فزع الطير من النسر وهرولت تصيح فأدركها ومدّ يده إليها فقتلها هي الأخرى، لم ينج من بطشه ابنها الذي غافله في فراشه، ولا ابنتها التي تبعت أمها مهرولة بشبابها وفتوتها، أدركها وكانت على وشك النجاة فقتلها بطعنة واحدة سديدة إلى مقتلها فوقعت هامدة قد طار من جسمها روحها قبل وقوعها، ثـــم خرج وقد تركهم جثامين هامدة.. اكتشف الناس الجريمـــة فحضر البوليس وبذلت جهود في البحث لمعرفة الجاني، وكان الجاني في التحقيقات سراب، حتى أن أبا المَقْراعي المقرب من سلطة الحماية، لطالما أدلى أمام أبنائه عند اجتماعهم على مائدة بقوله: "أرتاب في أبنائي، فلديّ شعور يحملني على الظن بأن أحد أبنائي هو القاتل".. ظلت الجريمة دعوى مرفوعة ضد مجهول، ظلت سرا تطويه السنون والعقود حتى أقر بها صاحبها عندما حضرته الوفاة وقد بلغ من الكبر عِتِيّا.. ملك السارد على المستمع كيانه فتوقف عن السرد

وحدّق إلى عيني صديقه ليجدهما تطفحان بالاستغراب، ونظر خلف شفتيه ليجد لسانه ينتفض بالهمهمة، فبادره: ((ما بك)). فرد عليه: ((ما الدافع لتلك الجريمة؟)). أجابه: ((الدافع إليها رشّ التاجر اليهودي ثياب المصلّين البيضاء الناصعة، والجميلة النظيفة.. يرشّ ثياب زوّاره كلما استدْبروه قياما في حانوته وتوجّهوا إلى صلاتهم.. يرتدون لصلاة الجمعة أفخر الثياب وأنظفها إكراما لجلال المقام، وإظهارا للفرحة والبهجة بالعيد الأسبوعي)).

ـــ بم كان يرش ثيابهم؟

= بسوائل يملأ بها مِكْنسة الجير والدهان عندما يغوِّصها في سطْل صغير، ثم يرشّهم بها.

ـــ وما هو السائل الذي استدعى منه ذاك الغضب، وولّد عنده ذلك الحقد حتى أجاءَهُ لتلك الفعلة النكراء، فاقترف جريمته الشنعاء؟

= كان من سَيْلة منفصلة عن الجهاز التناسلي لابنته الوحيدة

ـ13ـ.

فصل:

ليلى المَمْدَريّة

قطعة:

لقد ظنّ أنهما إلى نزهة في خميلة تنبت أشجارها الباسقة فوق كفّ أميرة الشعر، وتغرس نجومها الساطعة في قلب الشاعرية.
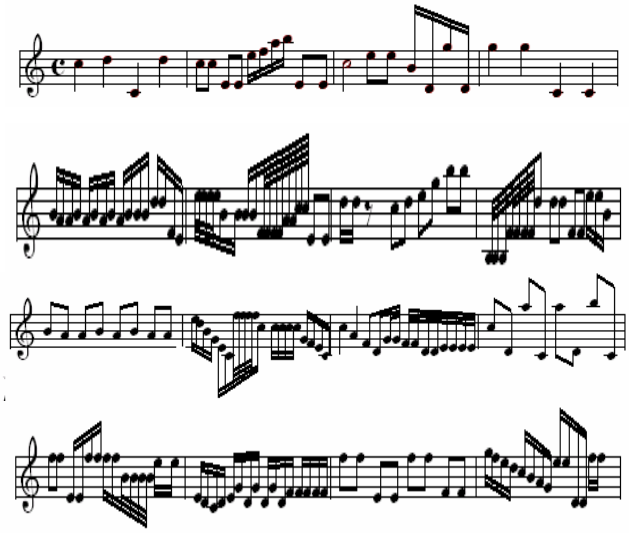
الشاطئ البلدي ويهوديات يأخذن حمامات شمسية وكراسي عليها نجمة داوود
1933م - طنجة -

طوت ليلى صباها وطفولتها مستعجلة لقاء شاب في مَتْلفه. تتأبط الزمن وتجر الحَزَن بمعية اليأس والأمل. تنْقاد الآمال للصابر، ويُعْمي الجزع قلْب الحائر. تخوض ليلى في الظلمة باحثة عن شاب لم يتلف له عقله في أعمدة هرقل، ولا قلبه في طنجة الجزيرة رغم وجوده حيث هي منتظرة متربِّصة.

ولع الشاب بالموسيقى الشرقية ولعا لافتا، عشقه للكلاسيكية منها يهيج وجدانه فيمسح همومه، هام بها هياما تعاظم لفتنة روائع موسيقار الشرق، و: السنباطي، و: القصبجي..

تعاظم لفتنة كلمات رقيقة شاعرية يبدعها المبدعون مثل: أحمد شوقي، وأحمد رامي.. لم يمل إلى موسيقى بلده وكلماتها إلا كما يميل الخيْزُران تحت ضغط الرياح الغربية، يعجب

بالضارب منها في عمق الشعب المعبّر عن مشاعره، والغائر في وجدانه الصافي؛ على بساطتها وعاميتها، ينتخب ما هو فصيح ومحلي بسبب موسيقى جميلة وكلمات رقيقة كتلك التي أبدعها عبد السلام عامر تحت نور القمر الأحمر، أو يغنيها إبراهيم العلمي تحت إيقاع:

يا حبيب القلب يا حبيبي يا غالي، يا شاغل بالي...

ما بين ليلى والمَمْدَري جسور غير موصولة باديَ الرأي لانقطاعها عند مسافة عصيّة عن الطي. وتحت سحابة آيلة للسقوط وُصل الجسر من حكيم فسلكه الممدري إلى حيث ليلى في قوقعتها..

تأخذه الطبيعة بلباسها الشفّاف.

تسرق لُبّه وتطرحه في فتنتها.

تجْذبه أفْضيتها في غابات الجبل الكبير ومنْتزه عشّابة المغتصب..

لا تنتهي عند الغابة الدبلوماسية المغتصبة هي الأخرى التي اتُّخِذت أيّام كنتُ مدينة دولية مصطادا للخنزير البري،

يقصدها نهاية كل أسبوع أعيان المدينة ومعمِّروها بكلابهم التي تؤزُّ الخنازير البرية في مخابئها لتدفع بها إلى ساحة قرب البحر، يجد الخنزير نفسه مستهدفا في الساحة بالبنادق التقليدية والحراب، يُطلبُ من أهل القرى والمداشر المحيطة بالمُصْطاد إقامة الهَيْضة، الرجال والشبّان يخرجون بالطبول والدفوف والبنادر ويخترقون الغابات بغية خلق الذعر في الخنزير وحمله على الخروج من مخبئه، يئزّونه أزّا والأطفال يحملون ما طالت أيدهم من أواني قصديرية ونحاسية يضربون عليها مقلدين الكبار وهم خائفون يغيضون في الجماعة غَيْض الحُمُر في المروج، من يصطاد منهم بالبندقية أقل شجاعة ممن يصطاد بالرُّمح.

حامل البندقية يركب حصانا أصيلا وهو مسدِّد إلى مدخل الساحة، فإذا استُنْفر خنزير ودخل المصطاد أطلق عليه النار.

وحامل الرُّمح يركب خيله المُحَجَّلة ولا يقف قبالة المدخل، يسكن مترصِّدا بجانب المدخل حتى إذا اقتحم الخنزير مدخل المُصْطاد جرى خلفه أو جانبه يلوّح برمحه حتى يسدِّده إلى

ظهره أو قفاه أو بطنه..

وكم مرة عاد الخنزير في جريه وحنا رأسه تحت بطن الخيل ورفعها فلا يُرى عند رفعها سوى بروكها فوق أمعائها، يشقّ بطنها بضربة مميتة، يحصل ذلك لفارس ليس أهلا لامتطاء فرس، ثم وضع الجلد الخشن تحت بطن الخيل حماية لها من ضربته.

لا ينتهي بهاء طنجة عند طنجة، ولا عند خميلة الرميلات حيث قرية أكْلا التي استطعم موسى والخضِر أهلها فأبوا أن يضيفوهما..

طفل يستقلّ شبابــه، وشاب يحمل طفولتــه.. على حافــة الرجولة ينصب منارته، وفي وادي العبقرية يطهّر سذاجته، يُكِنّ ما يعلن، ويعلن ما يكنّ، يحمل عقلا أكبر من رأسه، كذلك كان يرى فيه والده. مولعا بالقراءة والمطالعة حدّ الهوس. عصاميا يركب المثابرة. متسرِّعا في كتابة الشعر على قلة ثقافتــه. شغوفا بالمناقشة على قلة معلوماته ومحدوديــة معارفه. مسكونا بالسؤال ولم يزل، لطالما ردّد:

يعدو السحاب بجواري، يسابقني فأسبقه، أعدو في الغمام، أنتعش بالرذاذ، أسرِع العدْو، ذهني أكثر عدْوا، غاياتي بعيدة، أمدِّد معدن الذهب، أصنع منه خيطا دقيقا، أرسله مع الريح، وأظل ماسكا بطرفه، يتماسّ مع أهدافي، الغايات قريبة، مهما بعدتْ، شرط الأمل والصبر.

عمْران المدن عُلبٌ ومصبّرات ضاقت بها مدينته. لم تأخـــذه المدَنِيَّة، ولم تقتل فيه حبّه للغابة والبحر.. قليلا ما يتردّد على وسط المدينة، يجرّه أصدقاؤه حين يريدون متابعة فيلم في سينما: أَلْكسار، أو: كبطولْ، لا يفتهم متابعة فيلم في سينما: فوكسْ، أو: سيرْفانتسْ...

لا يتركون الْمَمْدَري ينعم في كوخه بسماع الموسيقى وقراءة الكتب؛ إلا إذا افْتقدوه، وحين يلْتمسونه يجدونه ثملاً بالشّذى يرشح أريجاً وندى، يشهدون تثْويجه في المنْتزهات، يرْتدي أهداب الخمائل فيبدو بزيّ أحسن رِئْيا، يسكن لهدوئها مع عبد الله السوسي، كثيرا ما يكون وحيدا؛ مُمْتطياً خلْوته، جالساً على ناصيته، سابحاً في تأمُّله، مُخْتلياً بذهنه رفْقة كلبته

الوفية لايْكا..

أَلْفُ ليلة وليلة ليست كتابا أدبيا يجمع مائتين وست عشرة قصة من الروائع الشعبية دون أن يُعرف لها صاحب.

أَلْفُ ليلة وليلة ليست رائعة كوكب الشرق التي شنّفت بها ولم تزل؛ مسامع مُرْهفة، وآذاناً ذوّاقة.

ألف ليلة وليلة ليست سوى علبة سوداء تشدو فيها ليلى..

عرفها المَمْدَري كما عرف "الدَّمَسْكوسْ" و"أندلسيَا"..

بكّر في معرفته للعلب السوداء وعوده لم يزل غضّا. استنْبتتْه في ترْبتها كما لو كان حَبّاً رطْبا.

برز للحياة ولحمه لم يزل عاريا.

تقْلق جدّته لعمّه الذي يتأخّر في الليل ولا يأتي إلا وقد تشاجر بسبب ما يتجرعه في تلك العلب.

تطلب منه جدّته على صغره أن يذهب إلى المدينة حيث العمران القليل والصّخَب الخجول والبيئة النقية؛ ليبحث لها عن فلْذة كبدها ولا يأتيها إلا رفْقته، غابت في وسطهم أمراض العظام وفقر الدم لنظافة الجو من رصاص عوادم

السيارات، وكم مرة عثر عليه جالسا في إحداها فيطلب منه المغادرة، ويعده بالعودة سريعا، ولكن الطفل يرفض ويذكِّر عمّه برغْبة جدته، فإذا كان العمّ رَيّانا صحبه إلى البيت، وإن كان ذا غُلّة استبْطأه، يطالبه بالمغادرة بعد أن يفرغ من مشروب غازي، ويقول له:

"اذهب وطمْئِن جدتك، قل لها أني بخير وفي عقبك"، ولكن الطفل لا يريد منه إلا أن يرافقه إلى بيت جدته، فيقول لعمه:

ـــ جدّتي طالبتني بمرافقتك حتى آتيها بك، لن أتركك حتى ترافقني.

= قلت لك اذهب، وقل لها ما قد سمعت.

لا يغلظ له القول رغم غضبه من إصْراره.

يحبّ ابْن أخيه كما لو كان من صُلْبه.

طالب الولد من زوجه الأولى: هِبة، والثانية: فاطمة، فلم ينْجب، أنجبت هبة من زوجٍ غيره وبقيت فاطمة حتى ترمّلت دون إنْجاب.

ـــ لا، لن أذهب، سأنتظرك حتى ترتوي، ثم نذهب معا.

= ليلتنا مقْمِرة أم مُظْلِمة؟

ـــ مقمرة.. لماذا؟

= سأكون بالبيت بعد أن يقطع القمر مسافة ثلاثين ألف كيلومتر ــ14ــ.

ـــ وأنا سأغشى البيت وأجلس إلى جدتي بعد أن تقطع الأرض مسافة أربعة وعشرين ألفا وتسعمائة وخمسة وتسعين كيلومترا ــ15ــ.

ييْأس العمّ من إصْرار ابن أخيه ولا يجد حيلة يصرفه بها عن مراده فيستسلم له.

يظلّ الطفل حيث هو منتظرا، يسوح بنظره مستطلعا محيط العلبة، يقرأ أسطرا في الوجوه فيخرج بفهم لما قرأ. يحفر بالتوسُّم في الأدمغة ويقتلع فصاصها الأمامية لتشريحها سرّا خلف النواصي. يقعد عند عمّه منتظرا إياه حبّا وكرامة لجدّته الطيبة فاطمة التي يحرص على إرضائها، وربما رغبة في تقليد

ولدها..

قعد المَمْدَري عند صديقه في مطبعـــة "السُّبانْيولـــي" بفندق الشجرة ينتظره حتى يفرغ من عمله، ثم يذهبا معا إلى حيث يقترح ويخطط لذلك في سريرته.

يذهبان وكلاهما يحمل في يده رُزْمة إلى "العياشي" بشارع المكسيك، علبته لصيقة بمقهى النهضة التي طالما تردّد عليها المَمْدَري. سجلت له في الأفُق الغَيْبيّ ملْء الطريق بجثّة ضخْمة تعود لِـــ"فْريوْرا" العنيدة.. تمنع مرور السيارات وتحول دون الراجلين عند ثمالتها، غلظتها أنستها أنوثتها فحجبت عنها الحبّ، ليلتها كان الممدري يحمل في جيب بذلته من ثوب "البانا" قنينة "فونْدادورْ" وأبوه في باب المرسى مسجّى في برّاد ينتظر منه دفنه في اليوم الموالي. عاب عليه صديقه عبد الله فعْلته فاستخْرج القنينة ورمى بها أرضا غير مكترث بما أحدثت وتحرّك نحو المقهى، ولما اقترب منه وقفت "فْريوْرا" كالخيْزُران وقد أوتيت بسْطة في الجسم وسقطة في العلم؛ تنتظره لتسبّه وتضربه وتمنع مروره أو قعوده في المقهى، ألِفت

المرأة بيئة السجن، لها باع طويل في منازلة الرجال واستعمال السلاح الأبيض، ولكنها مجرد أن اقترب منها الممدري قرأت في عينيه الغضب الذي لا يُتجاوز، ففهمت رسالة ناصيته وقد همّ بها لولا ميلها عنه إلى جهة أخرى..

دخل الصديقان علبة العيّاشي، ثم ناوله أحمد الرُّزْمتين المنفوختين بالمناديل الورقية ليؤدي عنها ثمنها، ولكنه لم يفعل، وكم مرة تباطأ في سدّ الديون رغبة منه في استخلاصها بالمقايضة، وكذلك يكون..

رافقه عشيّة يوم مُشْمس علمت فيه الشمس برغْبة البدر فأبت أن تغطس في المحيط، لا تعوِّل على ما تبقّى من عمرها حتى تحقِّق وعْدَ ربِّها، خمس مليارات سنة هي ما تبقّى لسكون نبْضها وتشكّ في تحقيق القيامة، تؤمن بإمكانية قيامها قبل نفاذ وقودها، كما تؤمن باحتمال قيامها بعد موتها بملايين السنين، ولم لا وإمكانية انتقال الإنسان إلى نجم شاب به من شروط الحياة ما يضمن استمرارها، تقرّ بغيب القيامة عن الكائنات وعدم خضوعها إلا لإرادة الخالق، لقد أذِنت للبدر

بالبزوغ بعد أن ضافت باهتة وهي تريد أن تسمر ولو لليلة واحدة في حياتها لتقوم مُتَهَجِّدة. أرضُنا تعرف آية النهار وآية الليل، ولا تعرف شمسنا إلا آية النهار.

ظهر البدْر هتّاكا لستْرة الليل، يمزّق ظُلمته ولا يستحي من تعْريته. في حُلّته الجميلة مدّ كفه إليهما يسبقه نوره ويطلب من الممدري حجب ضياء الشمس المتبقّي حتى يستمتع به، لقد ظنّ أنهما إلى نزهة في خميلة تنبت أشجارها الباسقة فوق كفّ أميرة الشعـــر، وتغرس نجومهـــا الساطعـــة في قلـــب الشاعرية. يحلو للبدر الإنصات حين يكون بدرا أكثر مما يكون قمرا، ولكنه لم يحظ بشيء، ولم يغضب من اللقاء، وكيف يغضب الحبيب من حبيبه؟ لا ينسى مناجاته في ليلة حار في ظلمتها النور لَمّا رآها شاعرية، ركب معه إلى طوْق الحمامة، ثم جلس القرفصاء فوق شوقٍ يحيط به أدبه من أجل أن يستمع ويستمتع، تمنّى عليه أن يعيد سرد الحكاية الجميلة التي رواها له منفردا وقد اصطحب ضيفا دون إذن من صاحب الدار، ولكنه يسبح في بحر كرمه، يتسامى في عليائه

كما يتسامى الحب في طوق الحمامة..

يعجب للحبيب الذي يدْمن النظر إلى حبيبه، لا يشك في غياب العتاب على فعلته، وكيف يعاتب من يستمتع بالنظر إلى وجه حبيبه؟

يكاد يكون بصره من حديد.

لا تطرف له عين، ولا يتحرك له جفن.

تجحظ عيناه وكأنه مرعوب، كل ذلك ولهاً في حبيبـــه، يمتلأ هيامـــا بـــه، ويتحـــرق شوقـــا إلـــى الذوبـــان فيـــه. إذا تحرّك الحبيب تحرك لتحرُّكه، وإذا تنقّل تنقّل لتنقُّله، حتى وهو كالشفْر لقرنية إحدى عينيه؛ يطوف لطوافه، يتروي لانزوائه، ويميل لميله، كل ذلك أملا في عشق يجد حرارته في حبّه له، لا يخشى مزاحمة أحد من المحبين وكأنه الدوّار في ذرة الهيدروجين ــ16ــ..

يَضرب على الآذان حتى يستأثر بسماعه وحيدا، يُنصت إليه إذا تكلّم، ويمنع غيره من التكلُّم، لا يتزله منزلـــة الحاكـــم

والسلطان وإنْ من إنس أو جان، يهيم به هيام قيس بليلى، وجميل ببُثَيْنة..

يُصدِّقه وإن كذب. يوافقه وإن ظلم. يشهد له وإن جار، ويعتقل الزمن لحسابه. لماذا؟ لأنّه يحبه. وهما يصعدان درج ألف ليلة وليلة طفقا يرددان مع صوت يغني رائعة:

وما اسْتَعْصى على قوم منال

إذا الإقْدام كان لهم رِكابا

أبا الزّهراءِ قد جاوزتُ قدْري

بمدحكَ بَيْد أنّ ليَ انتسابا

فما عرف البلاغة ذو بيانٍ

إذا لم يتّخِذك له كتابا..

يتوافق صعودهما الدّرج مع فقدان الممدري ستمائة وسبعة وخمسين مليون عَصَبَة ــ17ــ، وحين اقتحما القاعة غِيض

صوت أمّ كلثوم كما تغيض الأجنة في الأرحـــام، وفـــاض صوت يحاكي صوت كأس مهشّمة مُلئت فيْضا فارابيا تافها، لم يكن صوت كوكب الشرق إلا في مذياع لتاجر الـــذهب والفضة والعملة الصعبة من البيـــسيطا واللـــيرة والـــدولار والفرنك بعقبة "السمّارين" الفقيه: "ميلير"، يصل صداه إلى

ألف ليلة وليلة، يحفل به حزّان اليهود ومخبرهم في حانوته الضيق دون أن يعرف ثناء الأغنية ومدحها لمن؟ ولو عرف لَغَـــبَ، ولو عرف لَتَـــوّل عنها.

ألقى الممدري إلى صديقه:

"هذا غناء دون غناء، لا أقول ساقط، ولكنه غناء دون غناء، ولا أريد لأذني أن تهبط درجات لتسمع، أخاف مؤاخذة الذوق الرفيع".

اتخذا لنفسيْهما مكانا قرب الجوْقة، تغنّي وسطهم ليلى، ترتدي نظّارات سوداء، تنفعل لكل كلمة، وتميل لكل تنوّع في اللحن، لا تقوم راقصة، ولا تحوم بنظرها، الأقطار الثلاثة

لا تعنيها، ربما لا تعرفها، هل للامبالاتها؟ ربما. أم هل لجهلها؟ ربما..

تبدّل اللحن وتنوّع الإيقاع وتبدّلت الكلمات ورقص لها الراقصات حتى ساعة متأخرة من الليل، ثم انفضّ الجميع وبقي الممدري مع رفيقه. أحمد يريد المغادرة، والممدري يلحّ في الانتظار رغبة في الاستطلاع. تعلّق بحب الاستطلاع كديْدنه. يريد فهم سلوك ليلى، كم هي شامخة، يدير لسانه بعبارته. لا تلتفت لناحية، يزيد على جملته، ولا تحفل بأحد، يبني ثاني فقرته رغم كثْر العيون المتلصِّصة، ومنها عين الممدري..

ساد الصمت قليلا فانطلقت ليلى منشرحة تسأل هذا باسمه، وتجيب ذاك بلقبه. تتوسط الجوقة كملكة النحل. يحفل الجميع بها لحسن أدائها، وربما لجمالها. ليست بشكلها تفّاحة، ولا بقوامها إجّاصة، ليست فاتنة، ولكنها مليحة..

أسِنت العلب، وحار الممدري في شأن ليلى، تساءل:

"كيف تكون ليلى الشاحبة على غير العادة التي ألفتها في مجتمع الوطاويط؟"

غادرا إلى حومتهما "الدرادب" دون أن يظفر بجواب.

لم يقو الدَّرادِبي على محْو صورة الشموخ في امرأة شاهدها تغني في ألف ليلة وليلة. يتردّد على عدّة علب وهو مشدود إلى علبة ليلى دون أن يصرّح. يريد معرفة السرّ لدى تلك المغنية التي تمتلئ بالرشاقة تجاه العازفيـــن، وتتسامى شامخـــة بإبائها عن غيرهم، فلماذا؟ يتساءل ويتكتم عمّن دفع به في جحرها.. هائما بشبابه ولشبابه. مكتئرا بقيمه وأخلاقه. بدينا بجرأته وشجاعته، يمتلئ كوخه بأصدقاء يترددون عليه من كل ناحية وضاحية. كلهم في الطّيش للصّخب يطلبون، وبنار المشاكسة يصطلون.. يجالسونه في كوخه ويهيمون بما قُدِّم للملك المصري من ذلك الناسي ذِكْر ربّه. يدخنون كل ما يُشرب دخانه. يألفه أقرانه، يحبّه أخدانه، ويعاشره الصغير والكبير. تُلقى للنساء جلاّبيات رجالية، ثم يدخلن الكوخ دون أن يلفتن نظر أحد. أمينا إذا اؤتمن. وفيّا إذا حلّ

الأجل، ومجيرا إذا استجير. طفل يحسب نفسه رجلا، كبر في نفسه ورفض الاعتراف بسنّه، تساوى رأيه بسلوكه ولم يتطاول أحدهما على الآخر، يفصل الخصومات بجلبه جميع معارفه إلى كوخه، لا يترك فسحة لفجور الخصام، ولا للحقد مجالا لإنبات الانتقام، لا يهدأ حتى يُقْبر البغض والكراهية عنْد أول إطلالة..

عند حلول الدفء وأفول الصقيع تنفتح أمام ابني البار أفضية يهيم بها. يتردد على منتزه عشّابة ليلا ونهارا. فضاء يقف فيه شجر الصفصاف شامخا، يختار الوَرْوَر غصونه للمبيت فوقها، ويقتلع الإنسان لحاءه لاستخلاص الأسبرين منه. يفتتن شباب المعدنوس بألوان الورور الزاهية. حين يبسط أجنحته في السماء، تبدو ألوانه كقوس الرحمن، يحسّون بدونية عندما يحلِّق فوقهم حائما في السماء إيذانا بالمبيت، ويتساءلون عمّن علمه الضغط بمنقاره على مؤخرة النحلة للفظ إبرتها السامة قبل التهامها، يرمونه بمنجنيق يَدَوي دون أن يظفروا بواحد منه إلا نادرا..

يضعون الشّرَك لطير عَيْشَة القَرْعَة وعيْشة ملاّلا وأبو الحناء ويصيدون منها العشرات. نصيب طائر الحسون والهدهد والسمّان؛ من الشرَك قليل. تُصطاد بالكاوْتشو اللاّصق والمنجنيق اليدوي. ما يصطادونه يكون للبيع والتربية والشواء والهبات للأطفال. جلّ طعامهم في يوم صيدهم خِيار وطماطم وفجل وجزَر.. يسرحون ويمرحون في بساتين ومنتزهات وأغراس وجنان مكتنزة بغلال تحلّ في موسمها، لطالما جلس الدرادبي في جانب وادي اليهود عند ضفته الشرقية على جذور الكليبتوس وقد تعرّت من لباسها واستلْقت فطفقت تأخذ حمامات شمسية. ألف الوادي نساء من حي المعدنوس وكَنارْياسْ وبيرانْدو وتْشيبْري وجامع المقراع والبرامل... يطهّرن غسيلهنّ من مياه الوادي الصافية، تسمع له خريرا ولا تقوى على تعداد تنوُّعه، تعرُّجاته وخدوده، ضحالته في مواطن كــ" القْسيعاتْ" لطالما آذت سباحين أطفالا ارتطمت رؤوسهم بالطين والصخر عند قفزهم في الماء فخرجوا من تحته داميين، وعمقه في أخرى

جعلت له إيقاعات عديدة يخرجها من آلات لا تُرى إلا بحسّ الفنان الأصيل.. ينشرْن الغسيل على العشب والهلْيون الذي بهيَ بأيدي مهرةٍ تحته، تمارس الحياة فيه، والحياة حبّ وعطاء، بها كائنات تحمل في جسمها الذكورة والأنوثة، فكيف ينشأ بينها الحب؟ وكيف يمارس لديها العشق؟ في بطونها مصانع للبيض، ومصانع للماء المخصِّب، وعند الزواج يتبادلون الصفات الوراثية ويختمون عند التبادل؛ بالذكورة والأنوثة، فماء هذا يخصِّب بيضة تلك، وبيضة تلك تُخصَّب من مـــاء ذاك. ينشُر النساء الغسيل على الصخر المعمِّر الذي أطلّ من قاع الوادي وهو يشرف بقاعدته على غلاف نواة الأرض. أمُّ الدرادبي بينهم، وأمّ أحمد منهم. أطفال المعدنوس بأكوازهم في الغدير يُقْبقون، والفتيات منهم رفقة عامر على الحبل يقفزون، وعلى الأرجوحة يتأرجحون. تتحرّر الأم من عمل البيت وتخرج في مهرجان ربيعي قبل أن يجفّ الوادي لتختلط بغيرها. حركة دائبة، وزغاريد متقطِّعة. تناوُل للغداء في الخلاء، أو "مِرْيِنْدا" **Merienda ــ18ــ** عند المساء.

مفْخرة طنجة يجلس سائحا بفكره في صفحة السماء ويسترق النظر إلى الشمس من خلال أغصان مورقة، تتكسّر الأشعة فترسم لوحة رائعة، تنشر خيوطها مُحدَّبة ومُقعَّرة وكأنها قناديل سابحة في مياه البحر. تسترق الذرات مـــن ذهن المفخرة استنتاجـــا يحكم علـــى انكماش الأرض والإنقاص مـــن أطرافها أملا في الاقتـــران بالشمس. أيهما العريس؟ ومن هي العروس؟ تُزفُّ من؟ لمن؟ موعد الزفاف بعيد، ولكنه بعمر الأجرام السماوية قريب. يوم تمدّد الشمس، ويوم تتّسع دائرة مغناطيسيتها هو يوم الزفاف. هي الآن وفي كل ثانية تفقد من كتلتها نحو خمسة ملايين طن على هيئة طاقة تنتج من تحول غاز الإيدروجين بالاندماج النووي؛ إلى غاز الهليوم. تمضي في تفاعلها لما خُلقت له. تكاد تبتئس خوفا من عدم الاقتران لولا الحب المتبادل، تخشى بعملها أن تفقد عريسها قبل أن تصير نجما أحمر. ستنطلق الأرض بعيدا وتنفلت من جاذبية الشمس وتضيع في صفحة الكون فـــ" يهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة" يهلك الحب

ويموت العشق ويعتطب الهيام.. ولكن الأرض وفاءً لعريسها؛ تحاكي فعاله، تفقد من كتلتها وزنا متناسبا تماما مع ما تفقد الشمس مـــن كتلتهـــا، يخرج ذلك عن طريق فوهات البراكين وصدوع الأرض، ينطلق على هيئة غازات وأبخرة وهباءات متناهية الضآلة من المواد الصلبة التي يعود بعضها إلى الأرض، ويتمكّن البعض الآخر من الانفلات من جاذبية الأرض والانطلاق إلى صفحة السماء الدنيا، وبذلك الفقدان المستمر من كتلة الأرض تنكمش على ذاتها، وتنقص من كافة أطرافها. تحتفظ بالمسافة بينها وبين الشمس حتى يأتي موعد الزفاف. تظل الأرض في عين الشمس وعلى طرف إصبعها حفاظا على الحب والحياة لكل الكائنات إلى أجل الزفاف المعلوم. قرب المفْخرة ثمرة عشقٍ عفيف. إذا سبحتَ في بحر الحبّ تجد مهارة لدى السابحين والسابحات، يسبحون في محيط لا يشترط ولهاً ولا صبابةً.. حبّ صافٍ ومودّة صادقة أنبتت براعم يلعبون على مرأى أعين أمهاتهم، بينهم رُضَّع يحْبون في العشب مُنْتشين. صبْيان سعداء لا يثبتون في

المشي إلا بخطوة أو خطوتيـــن، يتعلّمـــون المشي ولا يستسلمون لعجزهـــم، يسقطون على البرْوق الناعم، والنجـــم الأخضـــر، ثـــم ينهضـــون، يعيدون المحـــاولات ويكررونهـــا، نشطاء تصْدح حناجرهم بضحكات؛ مـــا ألطفها، يقاوم من بينهم أمْجَد وقد تقدَّمهم بشهر واحد عن ربيعهم الأول، يستميت في قطف سوسنة فاتنة، سَحَره لونها الزّهري البديع، وحرّكت فضوله حشرات بين يديه تحطّ فوقها وتطير طنّانة.

طارت الطنّانات على موعد أدفأته غريزتهن بحب لاسع وعشق مميت لحضور حفل الزفاف، وقفزت من بين العشب عجوز برمائية لا رقبة لها فوقعت على ذراع أمجد دون أن يحفل بها. اعتلى الفضاء حشرة كريمة وتبعها ذُكرانـــها يتسابقون للزواج منها، اعتلت الملكة وهم يلحقون بها، وكلما اقترب منها عاشق ازدادت علُوّا حتى تكسّرت أجنحتهم وخارت قواهم ولم يبق منهم سوى ذكر منهوك قد قفل عائدا لولا تداركه، هوت إليه فاستقلّ ظهرها وتزوجها

بعيدا عن العيون الفضولية.

يتعثّر أمجد فيقع على سوسنته الجميلة ويده ممدودة إلى زهرتها يريد قطفها، وكلمـــا تحرّرت من ضغطه عادت إلى استقامتها وكأنها زانة قفز تتحداه في شموخ وإباء، عضلاته القابضة والباسطة لقدميه يعوزها شيء من الخبرة، ولكنه يمرّنهـــا، ينهض من جديد لقطف الزهرة، ثم يسقط عليها مرة أخرى، تتحرر سوسنة المساء البهية وهي منتشية بجمال الصبا الذي لا تزال تراه في نفسها بإزهارها.

وقف الصبي أخيرا عاجزا وتسمّر مكانه مُحدِّقا لا يحاول، ينظر إلى وكأنه طفل ناضج يقرأ سرّا ما في مملكة النبات، هل يفكر فعلا؟ ربما. وهل يراجع عجزه لتحسين أدائه؟ ربما.

آباء مزوون بعيدا وأعينهم على إشارات نسائهم، وآذانهم مُرهفة لنداءاتهنّ، في كل روْحة يعتلي راقصات شَفَقهنّ وهنّ

يودِّعن النهار حتى لا يجعلْنه سرْمدا، تطغى بحلوله إيقاعات من عازفين يدفئون أدواتهم في جنْح الليل وينشطون في الغناء عند سكونه، أصوات من ساكنة الوادي تغوص وتطيل الغوص متنفِّسة من جلدها ــ19ــ، ما كان لها أن تَصوت لولا دفئ الجوف وزفير الرئة الساخن، تجلبُ الإناثَ الأصواتُ لدورة طبيعية، لا تصطفي الأنثى للحبّ، ولا تنتخب للعشق إلا كهلا قويّ النفخ في بوقه، يتقن العزف، ويحسن الغناء، تعرف بغريزتها أنه أقدر على مساعدتها في حفظ نسليْهما فتهواه، ولم لا وهو لم يعمّر مــن عمــره إلا بسبب خبرته في الانفلات من الأفاعي واللقالق؟.. يمتلئ منتزه عشّابة ولا يضيق بعامريه. شباب يلعبون كــرة القدم، وآخرون يتنزّهون. منهم من يمارس ألعابا ورثوها عن الاستعمار الإسباني كشد الحبل فردا فردا أو جماعة جماعة.. ومنهم من يجلس في منتزهه يراقب من يستقلّ المدى. إذا قصدوا الجبل الكبير يتواودون. وإذا راموا سيدي عْمارْ يتجابلون. فتيات يلعبْن الغُمَّيْضة ويقفزْن على الحبل وعلى

مربّعات ومستطيلات مرسومة بسبّابة صفوان كالمحراث، طفلات يلعبن العروسة، نساء يتحادثن مع جيرانهن ولو أن يكنّ بعيدات.. ساكنة طنجة جيرة للحياة.

عند شجيْراتٍ شبّان يمارسون الجمبـــاز، لطالما كان بينهـــم الدرادبي صحبة رفاق من أبناء حيّه يكبرونه بسنوات ما بين عدد إلكترونات ذرة الآزوت والصوديـــوم ــ20ــ، يمثّلون جيلا غيـــر جيلـــه، يرافقهم وقد تأثر بأخلاقهم، تُغلِّف سلوكهم قيم رفيعة من عفّة وشجاعة وإيثار.. يحمل عن الشريف الزرهوني أدوات الرياضة فرحا مغتبطا بتعليمه إياه الجمباز فيبدو منتشيا رفقة الكبار.. سأل عنه صديقه في نفس اليوم الذي نغّص الجنرال أفقير على ملكه حياته ــ21ــ، وحيدا يطوف حول بناية الإذاعة وهي تنشر بيانات متضاربة مع بيانات الانقلابيين في الرباط.

افتقده في يوم سيظل يئنّ ولن يتوقّف. في الغيب الأفقي طفلة بوسنية لا تتعدى ثلاث سنوات تسأل أمها: "لماذا يطلقون علي أنني ابنة زنا؟ وما معنى الزنا؟". ظل اليوم مُعلَّقا وبقي

معلقا على خشبـــة الإعدام. خمســـة آلاف من المسلمـــات البوسنيات اغتُصبْن عن عمْد قبل تمثيلية إسقاط رمزي الشموخ الزائف بتسع سنوات ــ22ــ، اغتُصبن قصد الإنجاب بعد قصف العامرية في ملجئها للنساء والشيوخ والأطفال بسنة واحـــدة ــ23ــ، قيـــل لـــه أن الدرادبي قد غادر إلى ملعب وادي اليهود لمتابعة مباراة في كرة القدم يخوضها فريق "كُرونا" الذي يلعب له أخوه "حْميدو". فضاء أخضر يسيَّج عند المباريات ببنات الخلايا الجذعية. شاهد الملعبُ فرقا لم تحظ بتصوير الكاميرا لندرتها وقتها، برز حينها لاعبون لا وجه للمقارنة بينهم وبين لاعبي اليوم، اللاعب بيلي وبيلي، ثالثه ورابعه حاضر يشاهَد ركضه ومراوغاته الرائعة وتسجيله للأهداف، "غَنِيمْ" الأسمر فوق مستوى الملك المزوَّر "بيلي"، و"حَنْطيطو" الخيزُران بمراوغاته يبزّه إلى درجة أنه يسجل أهدافا كوميدية جميلة غاية في الدهاء، يسجل بإحدى الإليتين وبالاثنتين، أثَرة الكوميدي المحبوب "فْلافْلْ" مبالغ فيها، لا تُنتزع منه كرته إلا بإيقافه وتسجيل

خطأ لصالحه، أو من طرف زميله المغيظ وليس في ذلك مخالفة، لا يحفل الهدهد بلعبهم، يبحث بمنقاره في العُشب المبتلّ عن ديدان ولا يطير إلا عندما يقترب منه لاعب متابع لكرته، يحطّ على العشب طير الدوري والكروان العسلي والقُبرة والحسون في ألفة بها نفحة سليمانية، لا يمنع متابعتهم للعب غير حمار هائج يلاحق أنثاه للزواج منها بشهود، ولكن دون مهر. يقطع لعبهم قطعان من المعز يسوقها راعيها عبد الله الفحصي وهي قاطعة إلى حظيرتها. "الطِّيبي" ثعلب لم يظهر مثله في غير ملعب وادي اليهود.. مضى اللاعبون وبقيت صور مبارياتهم في الذاكرة تبزّ العمالقة عند المقارنة، لا يفضلهم الفنان رونالدو البرازيلي، ولا مارادونا الأرجنتيني.. يقف المتفرجون وقد أحاطوا بالملعب ولم يتركوا له متنفّسا. يجلس الأطفال على هضبة وبأيديهم آنيات قصديرية وأعواد الزيتون وقصب الخيزران يضربون بها على القصدير والزنك ويقومون بدور الطبّال ليرفعوا من معنويات اللاعبين الذين يشجّعونهم،

يبدعون في الإيقاع وينشدون أناشيد تصدح لها حناجرهم. آلاتهم الصفيحية طوع بنانهم، تردد جماعة منهم: "ها حْميدو اطْلَع "صُولُو" أيّايْ يّايْ" ــ24ــ، وترد أخرى: و"قْطوطو" خْشا "كونو" Gono أيّايْ يّاي" ــ25ــ، ويتحولون إلى رئيس الفريق " تْشيكو" وقد كبِر بنقص في إفراز هرمونات الغدَّة الدرقية ــ26ــ ينشدون:

"التْشيكو" كُبّ الماء أيّايْ يّايْ ".

ويرد آخرون:

"وأزِلْ ذاك الغُمّة أيّايْ يّايْ".

يركض "حْميدو" بكرته نحو المرمى، يراوغ مدافعا فيتجاوزه ويقترب مـــن حارس المرمى، يقابله مدافع ثان فيناور بجسمه ولا يكاد يتفلّت منه حتى يمدّ المدافع رجله في مخالفة خشنة ويُسقطه أرضا، يصيح المهاجم: "أيْمّا" ــ27ــ يمدّ الصيحة مناديا على أمه وكأنها مطّاط ليندفع من بين المتفرجين لنصرته؛ أبوه، دخل الملعب مدفوعا بعاطفتـــه وتبعـــه بعض المشجعين ينتصرون للاعب البارع حْميدو، تشاجروا عنه

وتنازعوا دون أن يؤدي تشاجرهم وتنازُعهم إلى التحفيز الفوري لنخاع عظم أحدهم ــ28ــ.. رافق الدرادبي أحمد إلى قلب المدينة. صُرف بصرهما تلقاء ألف ليلة وليلة لقضاء وقت ممتع في الاستماع إلى المغنية ليلى..

ألفيا ليلى سعيدة تغني بحسب الطلب، أغرت الدرادبي بطلب أغنية لم يستمع إليها منذ مدة، حتى إذاعة طنجة المولعة بالأغاني الشرقية قد غفلت عنها، وربما افتقدتها في أرشيفها، وللطلب ثمن يقدّمه الراغب وكأنه غرامة في عرس مغربي تقليدي، رفع صوته يكسّر به أصوات الناي والعود، ويربك به الدربكة والكمان..: "ليلى.. ليلى.. غنِّ لنا أغنية من تلحين محمد عبد الوهاب، غنّ لنجاة مثلا" التفتت إليه وحدّقت إلى وجهه بنظاراتها السوداء تقول له: "أيّ أغنية تريد؟"

فأجابها: "أغنية ستّ الحبايب"..

فاستلقت باكية.

طفقت تبكي حتى اشتدّ بكاؤها. اصطخبت الأصوات وطفق

الجميع ينظر إلى الشادية وهي تنوح. أذاب الدمع مراهم في وجهها فكشف الجاني متلبِّسا يحفر أخاديد عميقة في خدّيها. تقدم إليها أعضاء الجوقة وشرعوا يحاولون تهدئتها وردّها إلى حيث كانت، فلم يفلحوا، ركبت مشاعرها التي أضربت عن ركابها منذ انسلخت عن عائلتها.. أدارت وجهها إلى حيث الدرادبي وسألته عن اسمه فعرّفها عليه، ثم همّت بالقول بعد أن نهضت تريد القعود قربه، عندها نهض عازف العود، ثم تناول يدها وشرع يخرجها من حيث تجلس، ينظر الدرادبي إلى حفاوة العازفين بها ويتذكّر ملكة النمل والنحل. عيون بعدد صبغيات ذكر النحل ــ29ــ انطفأت منها واحدة؛ تحدِّق إلى حركة ليلى وتتابع ترنُّحها، أدناها من الدرادبي وفسح لها، ثم قعدت إليه تقول: "لماذا طالبتني بأغنية ستّ الحبايب".

فيرد مشفقا: وهل أصبتكِ في جرح لم يندمل بعد؟

ــ أجل، ولكنها حية؛ بارك الله في عمرها.

تدعو بكفين مرفوعتين وهامة مقوَّسة ووجه في السماء.

= اشتقتِ إليها أليس كذلك؟

ـــ ومن لا يشتاق لستّ الحبايب؟

وطفقت تغني: "ستّ الحبايبْ يا حبيبهْ يا حبيبهْ، يا أغلى من روحي وْدَمّي، يا حْنَيِّنة وكلَّكْ طيبه، يا ربِّ يْخَلّيكِ يا أمّي، يا ربِّ يْخليكِ يا أمّي، يا ستِّ الحبايبْ ، يا حبيبه يا حبيبه، حبيبه..". طفق العازفون يلتقطون آلاتهم ليتداركوا ليلى في غنائها، وهي مسترسلـــة؛ انتصب إرضـــاء لها مفتاح صـــول La Clé Sol فـــأذن للبيضـــاء La Blanche والســـوداء La Noir أن تفسحـــا لذات الســـن الواحـــدة La Croche لتؤدي زمنين، ولذات الاثنتين La Double Crocheلتسرع به فوق نغم مكلوم ولا يوقفهما إلا السوبر Le Soupir، تتجمّع الإيقاعات في قالبها، والرموز الموسيقية في أوتارها، ثم شرعت تخرج معزوفـــة أعادت إلـــى المجلس بريقه، وإلى الروّاد نشاطهم.. تمدّدت أعمار الساعات مطواعة عن معدن الذهب، كادت تقف لولا فرارها من الزمن.

فرغت العلبة من الروّاد ما عـــدا النُّدل والبرمانـــات وليلى وجوقتها والدرادبي ورفيقه.
تحركا للمغادرة وفي نفس الدرادبي شيء من ليلى.
لا يزال يُكبرها، ولا يزال عاجزا عن قراءة شخصيتها.
مصبوغا بالبياض إلا من قميص رسم عليه مفتاح صول شعارا له ودليلا على حرفته، وهي متقدمة من وسط الجوقة راحا براح بمعيّته، نادت على الشاب للتعرف عليه أكثر.
قعدا عند من قَعَدَ منهما، وكان صديقه قـــد عرف للتوّ سرّا همس إليه به عازف الكمان، ولكنه لم ينفعل له، انحنى على أذنه بحمولته فرفضها معتبرا سلوكه سلوكا مشينا غير لائق لأنه إن تجاوب معه كان مناجاة مسيئة للجميع فقال:
"ما الضير لو أن إنسانا أساء الظن فتصرف بنقيضه مع الذي عامله بالمثل؟ لا ضير في اعتقادي".
لا يزال يُكبرها، ولكنه عاجز عن قراءة شخصيتها.
نداؤها عليـــه وكأنه بعيد، واعتمادهـــا على عازف العـــود ومرافقته لها إلى وسط الجوقة سلوك من كان كلاًّ على مولاه،

وحيرة صِفْر الحيلة على رزاياه، شرع يتحدث إلى ليلى وليلى تستلذّ حديثه وترتوي منه حرفا حرفا، يحدِّق إلى نظاراتها ويحاول قراءة ما تخفي خلفها، قرأ ما خلف النواصي في صباه، وعجز عن مثلها في شبابه، شرع يتابع حديثها ويتصيّد حركة جوارحها فداخله الشك وامتنع عنه الارتياب، ولما كان عند حركة عادية من ليلى وهي تمسح نظاراتها تفاجأ بانطفاء حبيبتيْها..

طأطـــأ رأســـه وقد تفلّت منه قلبه إلى جهتها، أخذتـــه ليلى وزرعت فيه الإشفاق، ثم ردّته عليـــه ونهضت مـــن مجلسها مغادرة.. تحرك يمشي مثقلا بالإشفاق، يجر رجليه كالعرجي جرّا، خفق قلبه لليلى ولا يدري هل خفق قلب ليلى له؟ سكنت مهجته واستوطنت ذهنه، استوت على ناصيته لا تبرح مكانها في تفكيره، يحاوره أحمد ولا يجد منه تجاوبا، ظنَّه قد أصيب بمرض مفاجئ، ولكنه لم يستقر على ظنه، قعد في شك لا يدري أيهما سيدفع لإخراج الآخر من دائرة المبارزة، ففاتحه ولم يجد منه ما يطمئنه..

شرع يتردد على ألف ليلة وليلة في رفقة ودون رفقة، ونمت العلاقة بينه وبين ليلى، وكبرت الكلمات حتى فطمت، ثم استأذنها لقضاء بعض الوقت معه حيث يحبّ، فاستجابت..

بدأ تردُّدها على العلب السوداء يقلّ، وبات عزمها على المضي في الغناء يخبو، استلم روتينها وشرع يقتطع منه فصلا فصلا ويدفع به نحو ماكينة التبخُّر..

حلّ فصل الصيف على حضَري وباديتي، يغيب فيه الدرادبي غيابا طويلا وبالكاد تعثر عليه في كوخه أو في المنتزهات التي تعوّد ارتيادها، لا تجده إلا عند الغابة قريبا من البحر، يؤانس الحشرات، ويربِّت على أكتاف الأرانب البرية، يصطاد السمك، ويقضي الأيام والليالي عند الصخور المرجانية، تعرفه أعشاب البحر وطحالبه، أسماكـــه و قشرياته ورخوياتـــه..

يصير شاهد عدل على هوى مائي، شاهد حبّ على هيام سمائي وعشق برمائـــي،

يزفّها لعرسانها، فتصير جيرة له..

شدّ رحاله مع شبيبة المعدنوس إلى سيدي قَنْقوشْ.

شاطئ جميل يقع بقرية "طالَعْ القْرَعْ"، نصَّبت أمريكا فيهـــا رادارا للتجسس على كل من يعبر بوغاز جبل طارق.

تجوبه شبيبة القرية وتتخذه منطلقا لتهريب السلع، لم يكن لمخدّر الشيرا بعد متعاطون. يمر بمحاذاة الشاطئ رعيان بحثا عن العشب للغنم وأغصان شجيرات الزيتـــون للمعز.. تقربـــه حقـــول للبصل والثوم، قليلا ما تجد في أراضيه لجفافه القرع والخيار والفلفل والبطيخ والباذنجان..

يقيمون خيمتهم قريبا من الماء والحطب، لا يحملون معهم إلا الزيت والسكر والدقيق، كثيرا ما يخبزون خبزهم عند خبز الغراب، ما يسدّ جوعتهم في الغذاء والعشاء يلتقطونه من البحر والحقول، لا يمنعهم أحد. تفرح ساكنة القرية بتلك الزيارات، ولم لا وهي ساكنة كريمة من أجداد كرماء، كلُم أجدادها بمحاكم التفتيش، ثم هُجِّروا من أندلسهم قسرا إلى الضفة الجنوبية واستوطنوا طالع القرع. أندلسيون بسطاء،

وأندلسيات بسيطـــات لا يزلـــن يحتفظن بشاشيات يرتدينها

فوق رؤوسهن ويتميزن بها، لسن بها مكسيكيات، ولكنهن أندلسيات، انقرضت من إسبانيا والبرتغال، ولكنها حملت إلى طنجة وحافظت عليها أندلسيات جبليات، كم هي جميلة، وكم هي واقيـــة، تقي من لسعـــات الشمـــس وأمراضهـــا العصرية، مصنوعة من ورق الدوْم، منسوجة بأيادٍ فنانة، تجلب الإنعاش والرطوبة في القيظ والحـــر، ستعـــود إلـــى الأندلس، ستحملها البدويات إلى مدينة ألميريا وسيستعملنها

عند قطف الثمار والغلال فـــي الزمن الذي يستنبت الميـنـــاء المتوسطي لتسرق فيه أراضيهم وتتلف ضيعاتهم ويظلمون الظلم الأسود..

في اليوم الذي هو تثنية لا يثنى ومفرد لا يجمع؛ اصطحب الممدري ليلى للاصطياف معه رفقة أصدقائه، لا يستقدم الممدري أحدا إلا ويحظى بالاحترام والحماية من طرف الجميع، يقل في شبيبة المعدنوس الغدر، ومن ثبت غدره يهجره الممدري إلا ما كان من لئيمين اثنين عجز عن اكتشافهما، ومع ذلك ما قدرا على الإذاية لجبنهما إلا ما كان من لؤم سرقتهما خاي أحمد الرايس عند ثمالته..

يتقاسم الشباب الأعمال ويتداولون عليها، منهم من يتكلّف بجلب الحطب، ومنهم من يختار جلب الماء، منهم من يصطفي طهي الطعام، ومنهم من يروم غسل الماعون وتنظيف الخيمة ومحيطها، أغلبهم يعشق صيـــد السمك، وكلهـــم يهـــوون السباحة، لا يخلو نهارهم من سمك يقلونه أو يشوونه أو يطهونه في طاجين مغربي لذّ طعمه وذاع صيته في العالم.

ليلى بينهم سعيدة لا تحس الغربة ولا تلامس عاهتها. إذا أرادت شيئا طفق الجميع يخدمها، وإن رغبت في الاختـــلاء بنفسها صحبها الدرادبي وتنحّى حتى تقضي حاجتها. يأخذ بيدها في الصباح الباكر عند غطيط البحر فيشرع في الركض بها. يركض وإياها على الشاطئ وهي منتشية، تنطلق بسرعة دون أن تبالي بما ستصادفه في طريقها، يلامسها الجرم الناعم مقتحما عضلتيها الإسفنجيتين، تنسى أنها ضريرة. أنساها مصابها فـــي عينيها. تعلّقت به وشرع الحب يكبر في قلبهـــا كنبتة "اللُّواية"، يحيط نبات اللّبْلاب بأي شيء فيغطيه ليستأثر هو وحده بالنور والضياء، قد يقتل دوحة معمِّرة إذا شاركته أسباب الحياة، فكذلك الضريرة. ظل الشاب وفيا لإشفاقه، ولكنه حين شرع يكتب عنها شعرا اختلف مع قلبه ودبّ الخصام بينهما، صوتها رخوٌ يتدلّى نحو القلب لتحريك وتره حتى ينفعل للحب، ثم يصعد مُحرِّكا وتر الصوت ولسان البشرى بالحب السعيد، قلب يحبّ ويريد أن يحبّ، وعقل في مَثْلفه يتزحلق في المسؤولية..

مضى الصيف فقرر الأصدقاء مغادرة البحر إلى بيوتهم، سيعودون وهم بعدد جموعٍ ليس في كلام العرب مثلها لحيوان حيِيّ. لقد شرع السحاب يرسل بريده إيذانا بقرب فصل الشتاء، يخرج من خلاله الوَدْق متودِّدا لليلى.

لا يكفيهم فصل الصيف ولا فصل الخريف..

لا يغادرون إلا مرغمين.

يقدمون إلى البحر في فصل الشتـــاء وتحت قصـــف الرعـــد وعنفوان البرق وعند العواصف..

جمع الشبّان أمتعتهم ولملموا أغراضهم ورتّبوا للعودة، ولكن الدرادبي رفض.

طالب أصدقاءه بترك الخيمة منصوبة، وخاطبهم:

"سأعود عندما تخلص المئونة، فقد بقي من الخضر والقطنيات والخبز ما يكفي لبضعة أيام.

بقي معي إمداد طاقي من البطاطس ما يصل إلى ستة ملايين وست مائة وثمانية ألف كيلو جول، ومن الجزر ما يصل إلى ثمانمائة وثلاثة وخمسين ألفا وست مائة وخمسين كيلو جول،

ومن الخبز ما يصل إلى أربعة ملايين وأربعمائة وأربعة وأربعين ألفا ومائتي كيلو جول.." ــ30ــ..

غادروا مطمئنين على صديقهم وهم بعدد سيمفونيات بيتهوفن ــ31ــ..

ساد الصمت محيط ليلى إلا من صوت الدرادبي والنوارس، ليس من بين الطيور طير لا تجيد الهبوط على الأرض، إذا حطّت؛ حطّت متزحلقة على اليابسة، وإذا طارت؛ طارت راكضة برجليها حتى تلقي بنفسها في الهواء من الأعلى ــ32ــ، تسمع صدى الأمواج التي بدأت تصل خيمتهما عند المدّ، لم تتبرّم ولم تبد رغبة في العودة، يقضي معها أياما ستحفر في ذاكرتها، تركض وتغني وتقشّر الخضر وتطهي الطعام...

ركبت نشوة السلامة وانطلقت تعدو عدو البصير. حُفر البساط الرملي في وعيها. تنطلق بعيدا، ثم تعود دون أن تتعثّر. تدوس بقدميها على طحالب وأعشاب بحرية مليئة بالحياة قد قذفت بها أمواج ثائرة تحمل زبدا رابيا، فيها

سرطانات مولودة حديثا، يتعلق بها براغيث بحرية، ويسافر فيها بزّاقات وسلْطعونات.. كم سعدت بركضها، وكم فرحت بجريها، لم تجربه منذ منع قرنيتي عينيها مما يمدها بالحياة ــ33ــ.. وكيف تفعل ولا أحد يمكن أن يفكر في حملها على الجري والركــض. كل الأصوات في اللغــة العربيــة مضمومة كالعواء والمواء والرغاء والثغاء إلا صوتين اثنين مكسورين تستعمل أحدهما مع الشاب لتعرف مكانه. ليست هرة تعتمد حاسة الشم، ولكنها أرقى.

ينتصب مكانه كــ شاردا.. يتأمــل الضريــرة ويتعجب لحلول الصبا فيها، تسرع الجــري حــتى يصطفق قميصــها للريــح، تأبــى الطفولة مصاحبتها، ولكنها تركبها.

اقتحم السواد بياض عقل الشاب واتخذه دليلا، لا يرتضيه وكيلا، ولكنه قد علق على جناح الحبّ، يحلّق به فوق الهوى وليلى واقفة ترصده. يتقطّع نفَسها لكثرة الجري وفيض

البكاء. تفطّنت لحالها. لقد نأى عنها حالها وما نأى، قدم الوَجْد يشكو الصبابة، فتبسّم له الهجر، أيّ فيهما الحبيب؟ وأيّ منهما للآخر طبيب؟ كلاهما بودّه رقيب، ولكن أحدهما بإشفاقه قريب، يشتكي القلب حب ليلى، يشكو أخاديد الوجنتين وقد تسبب فيها الدمع. رُدّ إليه عقله، ولكن قلبه أُخذ منه، انتزعته ليلى بكف رقيقة فاختفى، غابَ.. غابْ.. كما الحلو المذابْ.

جمع خيمته وملم أغراضه وكدّسها في كيس ألقاه على ظهره، وشدّه إلى كتفيه، ثم تناول قصبة الصيد، وأخذ بيد ليلى وتقدم يخطو بها فوق البساط الذهبي.. وقفا ينتظران الحافلة العتيقة "زرْياحة". للحافلة رحلتان في يوم الخميس والأحد من كل أسبوع. وحضرت زرياحة، صعد إليها الدرادبي وهي خالية من الركاب.

البدْو المتســـوِّق من قريـــة "طالع القْـــرَع" و "وادْ ألْيـــانْ" و "القصر الصغير" لا يذهب إلى المدينة مساء، بل يعود منها. أقعد الضريرة في مقعدها ووضع رحله، ثم تقدم إلى السائق.

الناظر إليه يظنّه ذاهبا لتناول تذكرة الرحلة، ولكنه لا يملك سنتما واحدا، فكيف صعد الحافلة مطمئنا وكأنها تعود لأبيه؟ وقف عند السائق وحيّاه، ثم قال له:

"لا أملك سنتما واحدا، وأعدك وعد الرجال أني سأوافيك حيثما تريد بثمن التذكرة".

أبدى السائق غضبه، ولكنه قبل أن يفرط فيه أو أن يطغى اعتقل ظنونه وأخرس شيطانه، ثم خاطبه بوجه صُباح:

ـــ اسمع، لا تظنن أني لئيم. انظر، معي ضريرة، ولا يمكن تركها هنا، هيا لإبلاغها مأمنها، ثم نتفاهم.

= كيف نتفاهم؟

ـــ رأيي أن تواعدني في مكان ما آتيك إليه بثمن التذكرة.

= لا، لا.

ـــ إذن إلى مخفر الشرطة بعد أن نصل المدينة، هيا، بلِّغ عني أني قد امتنعت عن أداء واجب الرحلة، فالأفضل لي ولك ألا نتشاجر، وأنت بسلوكك هذا تبرئ ذمتك مع رب الحافلة،

هذا في رأيي أفضل. أحنى السائق رأسه، ثم رفعه وقد تهللت أساريره، وغارت في وجهه عضلات العبوس وطفقت ترقص عضلات الابتسام، فأشرق عن نبل نفس، وأضاء كألف شمس، فتحوّل إلى محاور يســـأل الدرادبي عن حومتـــه ومن يعرف من الأصدقاء فيهـــا وفي حومة السواني وفالْ فْلوري والمصلى والحافلة تطوي المسافات وتسرع مستعجلة.. أبلغ الضريرة مأمنها. تركها في حضرة الأمل ترتِّب أحلامها. خفق قلبها لحياة دبّت فيه رفقة الدرادبي في البحر وعلى الشاطئ. "هل يتزوجني؟ لقد وقعتُ في حبّه. هل يكون مثل من مضوا من العُبّار؟ جرّبـــتُ العديد مـــن الشبان، أسكنتهم قلبـــي، أسلمتهم جسدي ولا أحد منهم اهتمّ بضمي إليه تحت سقف بيته، فهل أقتل الأمل؟ ولكن سأتعرض للمقاضاة، ثم الحكم علي بالسجن في ظلمة أخرى، أنا الضريرة فمن يتزوجني؟ من يتزوجني؟". ملأ الشاب كيان الضريرة وحفر في قلبها ذكريات لن تنسى. تعلقت به وجنّت لحبه. أحست بتجاوب يطْعمه الذوّاقون. أمست تداعب حلما وتتحدث فيه، ولكنه

شاب متسكّع وعاطل. كياسته وحسن خلقه، شهامته ولباقته لن تجلب خبزا، ولن تكتري دارا، لا يخطر بباله بناء بيت وإنشاء أسرة. ليلى امرأة طعنها العمى، وألصق بها نقصا منفّرا، لا يتزوج الناس العمياوات إلا إذا كانوا ابتزازيين، يتزوج الضريرة من يدفعها للاستعطاء، ولكن ليلى شادية في العلب، ليلى مغنية في الأعراس، فهي بعملها تكسب مالا، ولكن المال لن يعوّضها أنسا من رجل يغشاها ويغشى شرنقتها. ظلت منتظرة طلعة درادبية، وكلما قدم إليها الدرادبي اشتعلت فيها نار الشوق لذلك الأمل الذي راودها واقترب منها وأحست بدفئه، ولكنه ينأى، يدنو كلما دنا، وينأى كلما نأى. قلّ تردّده علـــى العلب الآسنة، ولما عاد أخيرا لرؤية ليلى؛ افتقدها. لقد ارتبط بها غيره إشفاقا، وتزوجها عطفا، وسافر بها إلى بلجيكا. جمعه بها سقف مطعم، لم ينتبه لوجودها لولا رنّة صوتها الذي سرى بين الناس واقتحم عليه سمعه. خفق قلبه من جديد بعد سنوات، ولكنه لم يستجب له. سكن لسانه كما لو كان قد بلعه. خشي

الأثير فأعطب ركاب صوته مخافة أن يقتحم أذنها فيتسبب في كارثة. يعلم هيامها به، ويخشى انقلابها على زوجها. عشقها حارّ لذيذ، وحبّها مؤلم فظيع، ولكن الشهامة ألذّ؛ وإن كانت أكثر إيلاما.. انصرف عنها مغتبطا وهو يتسلّل لِواذا. ظلّ متابعا مسيرتها مع المشفقين إلى أن... ظل يحفل بأخبارها إلى أن... ظلّ... نُعيتْ إليه في شمس المغرب.

فصل:

البريكادير مولاي

قطعة:

سيقوا إلى الكوميساريا لرشق أبنائهم بالحجارة مصابيح الإنارة في حيهم.. سيقوا لتحذيرهم من العقوبة التي ستلحقهم إن هم أهملوا تربية أبنائهم..
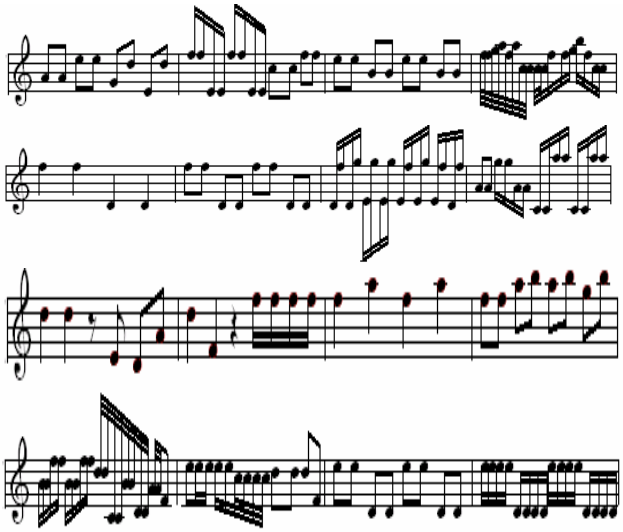
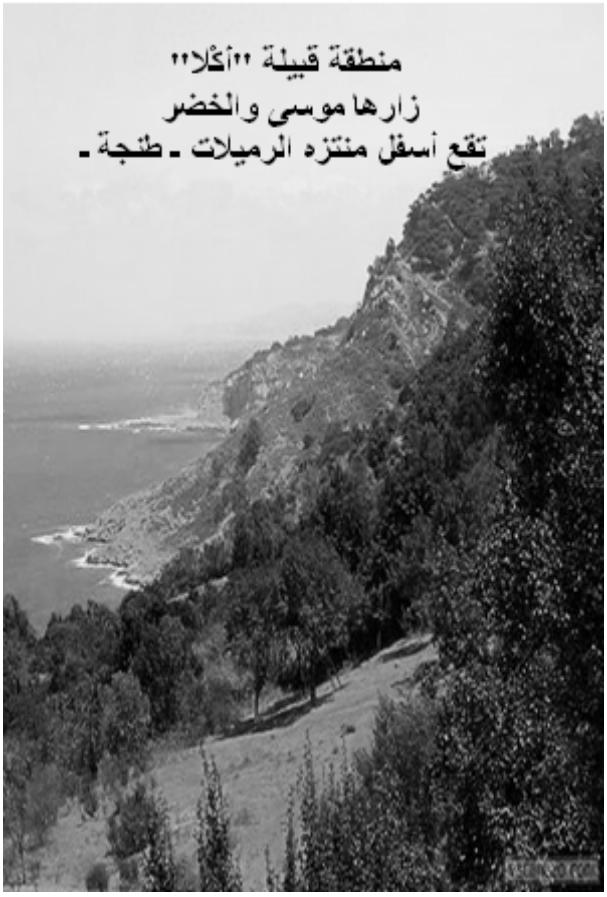
منطقة قبيلة "أكلا"
زارها موسى والخضر
تقع أسفل منتزه الرميلات ـ طنجة ـ

بعد ولادة جاليليو بسنوات هي أعداد إلكترونـــات ذرة البوتاسيوم واليورانيوم والذهب والزئبـــق واليود والنحاس والبلاتين ــ34ــ ظهر للمدري ابن عمته وصديق عمـــره؛ دْريسو، هكذا ينادي عليه تصغيرا لاسم إدريس، يضغط اسمه دون أن ينتمي لما بعد الحداثة. جر "دريسو" من مرآب منزله دراجة نارية، يمنعها عنه أبوه، جرها، ثم ركبها خارجا حتى لا يُكْشف أمره، تسكع فوقها، شبع دِوارا حتى تخم من شوق ركوبها، ولما كان يسرع وكأنه في الأولمبياد خانته العقبة فانحدر من رأس شارع كاساباراطا كذلك المنحدر من "سييرا نفادا"، يخال الناظر إليه أنه سيميل يمينا أو شمالا ليتابع سيره، ولكنه قصد دكانا انتصب أمامه فاقتحمه بدراجته النارية محدثا تهشيما لزجاج واجهته وكسرا لما أتى عليه، غار في ركن منه صاحبه خوفا ورهبا لّما رأى وجهته، فهل خاله نفقا

في طريق معبَّدة؟. جلب معه حفنة من شبّان يحاكون إلكترونات ذرة الآزوت ــ35ــ استقلّوا الحافلة إلى منطقة فيلا هاريز حيث ضيعة مشجرة بشجر الزيتون والرمان والتفاح والسفرجل والتين والليمون؛ تعود لمولاي الإمامي. أبو دْريسو بريكادير اشتغل في كوميسارية مرشان وكاساباراطا ووادي اليهود، يحفظ الأمن مع فريق من الشُّرَط يرأسهم الكوميسير الذي تناديه ساكنة المنطقة؛ البلجيكو، ركابهم الخيل والبيسيكليت، يجوبون منطقة نفوذهم راجلين وعلى الجياد.. يقوم الشُّرط بدوريات في الأحياء والأزقة، جلّ ما يصادفونه شبيبة ثملة قد أغراها المستعمِر وساقها إلى معاقرة الخمور سَوْقا، لا يرتوون منه أبدا، إذا بالغ أحدهم في السكر وأتى منه ما يزعج الساكنة ويسيء إلى المارة يسوقونه إلى مخفر الشرطة ويتصرفون معه تصرفا لم تورِّثه طنجة النصرانية لطنجة المستنصِرة، يأخذونه إلى بركة ماء مُخصَّصة للثَّملين، توجد في حديقة الكوميساريا على شكل مسبح، يسبح فيها السّمك والإوزّ والبطّ،

يأخذون الشمل إليها ويلقونه فيها فيأخذ حماما باردا بلباسه، لا تمضي عليه إلا دقائق معدودات مع بَطْبطات حتى يعود لـــه وعيـــه ويتبخر من مخه الكحول ويشرع فـــي القَفْقفة، يظلّ مُقَفْقِفا يتأذّى من البرد حتى يأخذ منه مأخذا بليغا، ثم يطلقون سراحه مطمئنين إلى وعيه الحافظ عليه رشده، والمانع إيذاءه للناس.. قدمت إلى كوميساريا مرشان زوجة السفير الأمريكي تشكو السرقة، يخرج ابنها للّعب في مرشان فتسرَق منه الحلوى والحاجيات التي يخرج بها من منزله، يخرج بالبيسيكليت وباللُّعب، خرج فقدم طفل صغير وسرق منه لعبة الكَوْبويْ، ثم هبط إلى مزار للاّ جميلة وهو يرشق زوّار المزار بمسدسه في نشوة ويصيح: طَنْ طَنْ.. طان طان.. استعلم "مولاي" فعرف الطفل، بحث عنه، ثم ساقه إلى مربض الخيل التابع للكوميساريا وألقى به في مربضها وتركه فيه، لا هو يخرج منه خوفا ورهبا منها، ولا هو يقعد فيه آمنا مطمئنا لها، يظل على حاله وتظل عين البريكادير يقظة خوفا من أن يلحقه أذى من الخيل، وحين يبلغ منه ما يبلغ من قناعة

التربية بعد استدعاء وليّه يطلق سراحه، يظل الطفل الأسمر يخشى البريكادير كما يخشى أباه، كبر وانخرط في سلك الشُّرط وساهم في انتفاضة أحداث الثلاثين من مارس بطنجة سنة اثنين وخمسين وتسعمائة وألف بإطلاقه النار على الناس، بقي تابعا لإدارة الأمن في ظل الاستقلال المزيَّف، تأخر به الحال ببندقية يقتفي أثر الكلاب الضالة ويقتلها حتى انتهى به الأمر في بلجيكا منبوذا من ساكنتي لقباحته، لاحقه الخزي حتى بروكسل التي غلب عليها من المهاجرين أبنائي، كان "بْريكْ" مكروها حتى لدى الكلاب الضالة التي تعرفه من بعيد، تشتم رائحته في كل مكان من أميرة المدن فتشرع في النباح، لطالما دعا عليه الباعة المتجولون لإتلاف سلعتهم ودوْسها بحذائه في رقصة الشامبانزي وهو ينتشي بها.. في صبيحة باردة مُنع رجال ساكنة كاساباراطا من الذهاب إلى أعمالهم، تلقّوا استدعاء بالحضور إلى الكوميساريا، جميع الآباء يستدعون ولا يؤبه لما يترتب على ذلك من تفويت مصالح لهم، أو ضياع أجرة يومهم، يقدمون إلى الكوميساريا

لشكاية..

سيقوا إلى مخفر الشرطة لرشق أبنائهم بالحجارة مصابيح الإنارة في حيهم، مصابيح نُصِّبت لأول مرة لإنارة الطريق العام، يلعب تحت ضوئها الأطفال فيتأخرون عن نومهم خلاف ما كانوا عليه، وإذا كلّوا من لعبهم جلسوا تحتها لرواية حكايات جدّاتهم، قبيل الغروب يشاهَد عمّال شركة إلكترا إسبانو مروكان **Electra Espano Marrocain** يطوفون بالأحياء والأزقة جماعة جماعة من عشرة عمال أو عشرين وبأيديهم عصيان طويلة ذات رؤوس غليظة، وحين يفترقون كل إلى جهته يقصد اثنان منهم إلى سارية نُصِّب عليها مصباح كبير قد تدلّى منه سلكان نحاسيان إلى حدود ما تصله العصا فيوجه عصاه إلى السلكين ويضربهما بالدبّوس فيضيء المصباح، ثم قبل الفجر بقليل ينتشرون كعادتهم لإطفاء المصابيح بنفس التقنية وقد تحلق حولها آلاف الحشرات وهامت بضوئها، منهم إبراهيم السوسي وبوطاهر.. سيق سكان حي كاساباراطا لتحذيرهم من

العقوبة التي ستلحقهم إن هم أهملوا تربية أبنائهم في تهشيمهم المصابيح. دخلوا على مولاي فبادرهم بالقول: ((لماذا لا تراقبون أبناءكم؟)).

فيردون عليه:

ـــ ما الأمر يا سيدي.

ـــ أما علمتم ما فعل أبناؤكم؟

منهم ذووا علم، ولكنهم صامتون قد فضحتهم عيونهم الدوّارة في محاجرها وهم مكشوفون للبريكادير، فيردف:

ـــ المصابيح المنصوبة تضيء ماذا؟ هل تسهِّل سيركم في الطريق وتكشف لكم الممر فتسيرون في أمن وأمان أم لا؟ أليست هي لكم بالدرجة الأولى وليست لساكنة الدرادب البعيدة عنكم مثلا؟ ويردون عليه:

ـــ بلى.. بلى..

خوّفهم من تبعات ما يفعل أبناؤهم إن هم أهملوا تربيتهم.

وبضيعة تعود لزوج عمة الممدري في "فيلاهاريـــز"، بها بيت

صغير بُنِيَ لحفظ الفأس والسرج، لصيانة منشار الحطابين والرسن، فيه قفّة وقلّة، يجمع القفس والرفش، علقت على حيطانه المجرفة والخابية والفراعة والمشواة، فوق أرضيته فخّ الأرانب وركاب الدابة والمعول والسطل والقرطل والساطور والأرجوحة والقادوم والقمع والمقلاع والمرشة والكماشة والمطرقة والقصعة والجفنة ونعال الدواب ومقلاة وقيثارة وقُعْب من خشب وآخر من زنك... يقي البيت البرد والمطر والريح والحر.

أظهرُ من الضيعة مستلقية في زلافة مزوّقة، مقعَّرة كخلية الدم، تتجه العين نحوي ولا تقف إلا عند أهدابي، تحلق فوق سجن ضمّ أحداثا تظاهروا من جامع الموحدين إلى أن زُجّ بهم في سجن "عازاريطو" الذي يدّخر سخطه متظلِّما من ثقافة الإسمنت، تعبر العين بحرا أزرق يغري بعبوره راجلا، لا أزال أحسن قواما ورِئْيا، يتقدم جبل سيدي المناري في بحري وكأنه يريد السباحة، يرسم للمدينة خطا متداخلا بين المنحرف والمنكسر، تجثم فوقه منارة لإرشاد السفن العابرة لبوغاز جبل

طارق، عوّضت منارة الشرف، تقوم مقام شرطي المرور فتشير بيسراها إلى السفن القادمة إلى ميناء المدينة، يرسم بشكله هلالا معطوبا عند شاطئ المريسات.. نشط الشباب عشيتهم مستمتعين بانتشاء العين لما رأت من جمال البحر، وبهاء الطبيعة، تنتشي خلايا الأنف الحساسة لما شمت وأراحت من أريج الزهر وعبق الورد في الغابة، ولما أقبل الليل أشعلوا فتيل الفنار لجلب النور ودخلوا البيت يشربون ما يظلم العقل ويجلب الندم، معهم راديو صغير من فئة ثمانية، يجلب لهم بنظام إف إم FM إذاعتي وإذاعة الرباط، وبنظام أَ إمْ AM راديو لندن والقاهرة وغيرهما. أمعنوا في ما هم فيه، وبالغوا فيما هم عليه حتى سخن مخهم، وبرد وعيهم فطفقوا يصطلون من دمائهم وقد اعتلتها الحرارة من غير مرض، يحرك أحدهم زرّ المذياع يبحث غالبا عن أغاني أم كلثوم أو محمد عبد الوهاب أو فريد الأطرش.. مولعون بالموسيقى، مغرمون بالشعر. تأخذ بألبابهم كلمات تجريدية جميلة، كلمات شاعرية تحبسهم فـــي محبسهـــا. تستقـــل عقولهـــم

أرجوحات منطلقة في حركتها لا تقف إلا بنومهم. غاصوا في الطرب وتدثَّروا بغواش من أزلّهم وأزّل قبلهم أباهم حتى انتهت الساعة إلى الثانية عشرة ليلا، في تلك الساعة من كل ليلة يحصل تبدل في الإذاعات، تغلق البث إذاعة، وتبدأ أخرى، لا تبدأ كلتاهما أو تغلق إلا على تلاوة مباركة لكتاب الله الحكيم، يتكلم المذيع عبر الأثير ولا يلتفت إلى صوته أحد، ولما شرع المقرئ يرتل ما تيسر له من كتاب الله انقض الممدري كالجارحة على الراديو وهو في يد صديقه فانتزعه منه ووضعه على أذنه وشرع يقرأ مع المقرئ بصوت عال وهو خارج من البيت يبكي بشهيق عال وزفير أعلى، هام على وجهه في الغابة يخبط خبطا، رام بئرا كأنه ماتح أو مائح، ولكن دون ذَنوب، أبت البئر أن تبلل مذياعه حتى لا يخرب ويقف الترتيل فغيرت موقعها حتى لا يسقط فيها، سار غربا ودار شمالا وصعد شرقا، ثم نزل جنوبا مستقبلا أنواري يتلو مع المقرئ ما يتلوه، حلّ قفْل قلبه فنبت فيه التدبُّر رغم سخافة وضعه حتى انتهى من تلاوته، عندها تبدل حاله من

مرح إلى انقباض، ومن فرح إلى حزن دفع به إلى التأمل والتفكر في أرضه وسمائه، في بره وبحره، في طيره وزحافاته، في أشجاره ونجومه، في حشراته وديدانه.. يردد كلاما مليئا بالثقة، يقول: إن ربِّي أنا يستطيع خلق سماوات وأكوان بقدر عدد الذرّات في هذا الكون وخلايا الكائنات الحية مضروبة في عدد ذرات الكون ومحتوياتها من الإلكترونات والبروتونات والنوى وخلايا الكائنات الحية والنباتات في زمن من يوم ولادة الزمن إلى ما لا نهايته في الآخرة، ولن أكون بقولي هذا موفِّيا حقّ ربّي عليّ، كما لن أكون مقدِّرا ربّي حقّ قدره. هذا هو إلهي. هذا إلهي أنا، فهل لكم إله مثله؟ ما أسعدني به ربّا، يقبل علي حين أقبل، ولا يدبر علي حين أدبر، برّ بي، حفيّ بي، رؤوف بي.. فما أشقاني إن أنا اتخذت لنفسي ربّا غيره. لم يكن بين الأصدقاء أثيره عبد الله السوسي فازداد انقباضا لحال الغليان الذي هو فيه، يفتقد من يجيد معه الحديث الفلسفي، ويمتعه بالحوار الأدبي، ويحدث فيه الفوران الفكري.. طالب أصدقاءه بالرحيل عن "فيلا

هاريز" وقد استقام في ناصيته صديقه الذي يطيل نقاشه ولا يملّان منه أبدا، تحرك نحوي بحثا عنه ليشفي معه غليله، قصد أمكنته، ثم عثر عليه. وعلى موعد مع رفيق شيوعي يدرس بالمركز التربوي الجهوي السيبيير **C .P.R** الذي طالما سرح فيه الممدري ومرح طفلا تحت بصر أبيه بمستودع بلدية طنجة؛ اصطحبـــه إلى حي سيرفانتيس، إلى منزل مكترى من طرف طالبيْن في مدرسة تكوين الأساتذة، ثم دخلا.. تحرك الممدري يمطر صديقه بالأسئلة الفلسفية ويبدي انتقادات لفلسفات قرأها، ولما عرجـــا على كارل ماركـــس تحمـــس الطالب وطفق يمتدح الفيلسوف ويعلي من تحفته كما يرى، كتاب: رأس المال. يثْني على إنْجلْس ولينين وتْروتسْكي.. تناول الممدري فكرة ديكتاتورية البروليتاريا وشرع يصلدها صلدا، أتقن تسفيهها من خلال أستـــاذه في تلك المرحلـــة: الدكتور: محمد البهي، عاب على كارل ماركس بناء النظرية الدياليكتيكية على فكـــرة التطـــور ولم يسمـــح للتطـــور بالاستمرار، أوقف التطور عند ديكتاتورية البروليتاريا ينتظر

أجل تقليده في نهاية التاريخ؛ الغبي فوكوياما، لا يصير السواد بياضا ولا البياض سوادا إلا عند الخَدَر المعرفي وهو في الماركسيين والحداثيين مرض مزمن، شرع الطالب يدافع عن فيلسوفه ويستميت في الدفاع عنه دون حجة ثابتة، أو برهان قاطع والممدري يهاجم كارل ماركس وهو منتم للحزب الذي غير اسمـــه من الحزب الشيوعـــي إلى حزب التقـــدم والاشتراكية. نسف الفكرة نسفا كما نسف موسى العجل في اليم نسفا، هذا بكّت صاحبه بعدما حاصره، وذاك المُبجَّل رمى بالعجل في اليمّ بعدما حرّقه، بُكِّت الطالب تَبْكيتا، وألقي في بهيتته إلقاء، شرع يطلب العون والحماية من عبد الله قائلا: "احمل معي على الرفيق الممدري، انظر إلى تسفيهه الفكر الماركسي، أعنّي عليه". والممدري يمطره: أصير شبيها بجزيئات الماء، أغزو أبدانكم، أبحث عن الأرواح فيها، أتحسس نبلها ، في الكريم، أتحسس وضاعتها، في اللئيم، أنا الراوي، فلا تجترعوني، لا تصرّوا، وإذا أصررتم، فتعقّلوا، احذروا كلماتي الحارقة، أصنعها من الديناميـــت، سأنســـف

الساقط، سأخنق المرذول، سأعتقل المغرور، سأطأ صرارير الأدب، وحباحب الفكر، سأعجن خبزا للنهضة، سأطعمكم، به لكي تنهضوا، سيعذب مدادي، سأرويكم به وقد اشتُقّ، من أمّ الحياة، أنتم ميتون، بدون مدادي ميتون.. ميتون... خرجا من عند الطالب في الصباح الباكر يجران فكرا لا يقنعهما، وثقافة لا توافق فطرتهما، وقلبين لم يمتلآ بالطمأنينة والممدري لا يزال منتميا لنفس الحزب. ركب ساقاه إلى كوخ وسع في ضيقه وكبر في صغره. تجلس فيه شبيبة من أعمار متقاربة.. يعود الكـــوخ لشـــاب طمـــوح مهووس بالمطالعة.. تزيِّنه مكتبة متواضعـــة، تحوي كتبـــا ومجلدات.. شاب يألف ويؤلف، يزوره فيه أصدقاء من جميع أقطاري، يعاقرون فيه قيئ القرد ولعاب الكلب، ويدخنـــون عشـــبة الكيف، يحفلون بأغاني المتربعين على عرش الأغنية العربية. يعجبون بأغاني عبد الحليم وأم كلثوم وأسمهان وشادية ونجاة الصغيرة ومحمد عبد الوهاب وفريد.. يقلّهم مركبهم الحالك فوق زمن يجرّ إلى الجنون جرا، يجنّهم كوخهـــم عن أنظـــار

الناس ويسترهم سترا، يجن لهم شرابهم عقولهم ويضعها في وكر النسيان، يظهر عليهم سلوك مقبوح، لا يسيئون إلى الناس رغم إساءتهم لأنفسهم، ثم يستسلمون للنوم، لو اطّلعت عليهم وهم رقود لما راودك شك أنهم أشقّاء.. في ليلة بدينة بالحكايات نبتت فيها صورة لم يحسن الرسام رسمها، نبت فيها صوت: "بْلاقْ.. بْلاقْ.. بْلاقْ..". تفسيره يذهب بالمؤوِّل إلى استحضار قطرات المطر الهابطة على كوخهم تغني وتعزف على آلات من الزنك والخشب.. على عتبة الباب نصف بدن، طرف منه في الخارج وبقيته في الداخل، الرأس تحت السماء والرجلان تحت السقف، خدّ صاحبه الأيمن على أرضية رُصّت بالحجر، بين حجر وحجر تطل نجوم الأرض تبغي مناطحة نجوم السماء، تحركها الريح فتدغدغ له خده دون أن يفطن لها، استقرت رائحة الحموضة واطمأنت إلى ركابها عند نوم حاسة الشم في مخه، يُسمع شخيره من مسافات بعيدة، يغرق في نومه ويسبح في قيئه وكلبة محمد تكنس بلسانها قيئه، وحين أتت عليه شرعت تلحس وجهه

وشفتيه وكأن ثقافتها أوروبية مستوردة.. انتصب النهار في يوم يُتِّم له الرُّشْد يُتْما حتى ما عاد يطمع في رشاد، ساروا إلى شاطئ مرقالة لأخذ حمامات شمسية، يسبحون كالإِوزّ والبطّ، ويتراشقون بالماء، غطّاسون مَهَرة، يطاردون في البحر سمك موسى بغَرْز معدني في مقدمته نصل حاد وهو متخفٍّ في الرمال، تبرق عيناه وتدور في رأسه كعيني الحرباء فيصعب كشفه، ولكن أبناء المعدنوس أمهر منه، منهم من يصطاد ببندقية الصيد البحرية، ومنهم من يصطاد بالبولنطي، يلوح بإحدى يديه ويرمي بخيط الصيد كما يُرمى بالمقلاع، ينصب "بوعاتو" "التريس"، ثم يتفقّده وقد امتلأ بالسمك الصحيح والمعطوب، يقع السمك في الشَّرَك تحت عمق بضعة أمتار، يُمدّ خيط الصيد في قاع البحر بين صخرة وصخرة وقد شُدّ من طرفيهما وعلقت فيه أعداد كثيرة من الصنانير بها طعم فلا يقوى المَصيد على الانفلات من عدوه حين يرمقه، يفترسه أسيرا وأحيانا لا يبقي منه إلا رأسا عالقا في الصنارة قد استغنى عنه، أو عافه.. وهم على حال العودة رمقوا

"الشريف الهروق" متجها نحو مقهى "كُوبّيسْ" في عُرْف الجبل، هي أعراف كثيرة، ولكنها لا تشبه من قريب أو بعيد أعراف الذين لا تنصرف أعينهم إلا لأصحاب الجنة الذين "يعرفون كلا بسيماهم" والذين".. لم يدخلوها وهم يطمعون"، يجر نفسه جرا، ويصعد في العقبة عَنتاً كالشيخ المعتل، بين الحين والآخر يتفقّد ما في كفّيه فيقلِّبه ويناجيه، وما إن رمقه الشريف "كوبيس" حتى نادى عليه بأعلى صوته قائلا: عد من حيث أتيت، لا تقترب مني. يُكبر الشريف الهروق صديقه كوبّيس **Copise** ويحبه، يعرف له فضلا، ولا ينسى له يدا، كوبيس بدوره ينادي ويتكلم مفصحا دون أن يعرف أحد ما يقول، يتقدم نحو المقهى وهو يتحدث ولا يكاد يبين، ولما اقترب إلى حدود السمع طفق الشريف كوبيس يقول له: ماذا تريد؟. ويرد الشريف "الهروق" قائلا:

ـــ فقط ثلاثين سنتما.

= لا، لا، لن تأخذ مني سنتما واحدا، عد من حيث أتيت.

ـــ "خاي" الشريف الله يرحم والديك أعطني ثلاثين سنتما،

فهي ما يعوزني.

= تعوزك السنتمات من أجل ماذا؟

ـــ لشراء ما تعرف.

= لا، لا، لن أمنحك إياها.

شرع الشريف الهروق ينظر إلى ما في كفه وقد يئس من صديقه، ثم فجأة انقلب إلى غضب شديد وشرع يسب، يمعن في السب والجميع ينظر إلى حركته ويستمع إلى سبه، وأخيرا استدبر المقهى وهو يقول: ملكان في يدي، وسلطانان في كفي، أحدهمـــا من النُّقـــرة والآخر من النّيكل، ولكنهمـــا مجتمعين لم يستطيعا شراء قارورة خمر واحدة للشريف الهروق، فكيف إذا افترقا؟. انحدر الشريف الهروق وقد ضغط عليه إدمانه ضغطا شديدا فساقه إلى براكة مصطفى لعله يمده بالسنتمات التي تعوزه. استقـــر المقـــام بمصطفـــى الفحصي في بيت صفيحي، ولكنه صِحّي، انتصب عند ساق الجبل الكبير مستقبلا شرقه ومستدبرا غربه، حماه غرسة

كبيرة مُشجرّة، ينبت فيها التفاح والإجاص والسفرجل.. بَقْلها يضرب به المثل في لذته وغناء مُكوِّناته، جرت به السنون مستظلا طمأنينته ومفترشا قناعته، بسيط قد صقلته يد التربة، وطيّب قد تعبّدت له أكفّ الكرامة، يبدو لمن يُشغِّله وللساكنة مقطوعا من شجرة، لا ولد ولا والد، ولا أخ أو أخت، أجير بحكم صفاء سريرته ونقاء علانيته؛ أضحى من العائلة التي تُشغِّله في حقلها.. أصيب مصطفى في بدنه، مرض مرضا عضالا لم يمكن الشفاء منه، انتكست صحته انتكاسة فظيعة فبات عظما بلا لحم، وجلدا بلا شحم، أتى الدود على لحمه وهو حي، تُرى الديدان خارجة من جسمه كله، لقد حفرت فيه من الداخل وشقت ثقوبا وأحدثت أخاديد تنتهي بها إلى خارج جسمه، كم فحوصات له أجريت، وكم أدوية له ألقيت، ولكن دون ما تتوخّى، حار الأطباء في أمره ولم يقووا على فعل شيء لإنقاذه، لم ينجحوا في القضاء على الديدان التي تخرج من جسمه، وفي الأخير انطرح في كوخه يتزين لأجله بمناجات خالقه، يقيم فيـــه

مهجورا لا يقربه إلا من يعتني بطعامـــه وشرابه، وأيّ طعام وأيّ شراب وقد بات الرجل جلدا على عظم ميئوسا منه يثير الإشفاق!. تقرّر للهيئة الصِّحِّيّة بمستشفى القرطبي خوفا من العدوى؛ أن يتخلّصوا منه، فأرسلوا إليه ساعفة حملته إلى المستشفى قصد قتله بالسّمّ. بحثوا عمّن يتحمّل مسؤولية إماتته عن عمد فلم يجدوا غير أخت له تسكن بادية طنجة، أرسلوا إليها هي الأخرى، ثم قدمت للتوقيع على قتل أخيها بيدها.. أخذت تعدّ العدّة للجنازة وهي تبكي على شقيقها الوحيد الذي يئس منه الأطباء وخافوا ظاهرته.. نزلوا به إلى قسم الإنعاش ووضعوه على ساعفة الأموات أملا في نقله بواسطتها دون تبديل، ثم قدم الطبيب المُحنَّك ذو السمعة الطيبة المعروف بالبلجيكو يصطحبه ممرض وممرضة يحملان ما يلزم للحقنة المميتة التي سبقت الحقنة الرحيمة المكذوبة. الرجل في حالة لا يعي معها على نفسه، فكيف بمحيطه؟ لقد دخل عالم الأموات وهو مع الأحياء، رفعت الممرضة الغطاء على رجله وأبرزت طرف إبهـــام رجله اليسرى، ثـــم سدد

الطبيب الخبير حقنته إليها بلطف منتظرا تسرب السم إليها رويدا رويدا حتى لا تنفلت منه قطرة واحدة، ولما انتهى؛ أمرهما بإيداعه مع الأموات، وأمر في وثيقته التي دوَّن عليها أن يُحمل إلى مستودع الأموات بباب المرسى بعد انقضاء أربع وعشرين ساعة على الحقنة، كل ذلك قطْعاً للشك ودرءا لأيّ احتمال يمكن أن يشكِّك في موتـــه.. تقبل الشمس بوجههـــا على برّاكتـــه تدفئها لـــه وتطهِّرها، ولكنها أصبحت غاضبة على فراغها من صاحبها مصطفى، وقبل أن ترتفع في السماء بغية تطهير قبره المحفور في مقبرة سيدي عمار؛ تحرك ممرضان تنتظرهما سيارة الإسعاف لاستخراجه بساعفته من المستودع لنقلـــه إلى برّاد بـــاب المرسى. رفعا الغطاء من على وجه مصطفى وتفقّدا سر الحياة فيه، ليس أملا في عودة الروح إلى بدن مصطفى، ولكن درءا لوهم الحياة التي لم يعثروا عليها، وكيف تكون له حياة وقد قتل بالسمّ الزّعاف؟ أعادا عليه غطاءه، ثم حركا النقّالـــة وشرعا يدفعان بها إلى سرداب المستشفى حيث تنتظر سيارة

الإسعاف. وهما يدفعان بالمُسجّى تحرّك الميت وتململ في مكانه وجلس يرفع الغطاء من على وجهه، ركض الممرضان يصطفق فيهما كل شيء وهما يصيحان فأحدثا بلْبلة واستنبتا جَلَبَة، ثم تحرك المستشفى كله للخبر، تقدم بعض الممرضين يتشجّعون، وما إن رأوا مصطفى يجلس في ساعفته هادئا مطمئنا ضعيفا هزيلا خائر القوى قد قاطعه الكليكوجين وغاضبته الطاقة التي يستعطيها حتى ركضوا هم أيضا، ثم تقدم إليه ممرض بعد أن اتصل بالطبيب الذي حقنه وأخبره؛ يتأمله جيدا، يحدِّق إلى وجه شاحب يشكو التعب والنصب، ولكن ما أثار انتباهه هو غياب الحالة التي كان عليها مصطفى ولم يتنبه إليها أحد، لم يكن يسعفه عقله في إدراك نفسه ومحيطه بسبب الإنهاك الشديد الذي لحقه، والضعف المهلك الذي عطل حركة جوارحه، لم يشاهد دودة واحدة تخرج من جسمه، شرع يفحصه في مكانه باحثا عن أثر للديدان فلم يجد لها أثرا؛ وحضر الطبيب مرتبكا، ولكنه مجرد أن نظر إليه انقلب إلى السرور رأسا، وغطس في الحبور غطسا، فلقد

أدرك مفعول السم وردّة فعل الجسم المسموم، عندها شرع يدفع بساعفته بنفسه ويكلمه ومصطفى بالكاد يرد على أسئلة الطبيب، وحين سأل عن حاجته وهل يريد أن يأكل لم يجب، ولكنه حرّك رأسه بالإيجاب، فأمر الطبيب أن يهيّئوا له فراشا ويقدموا له طعاما ساخنا غنيا، وماء عذبا صافيا.. طفق مصطفى يأكل بنهم شديد من شدة الجوع، ولكنه لا يقوى حتى على تحريك فكّيه والطبيب لا يزال يراوح مكانه مراقبا، أمـــر بتقديـــم الطعام مطحونا يسهل بلعه ليرد عليه عافيته بسرعة، ثم يتقوّى بها ويقوى بعدها على تحريك بعض من جهاز هضمه الإرادي.. مكث مصطفى في المستشفى بضعة أيام يتعافى من مرضه، ظل يستعيد صحته إلى أن تعافى تماما، ثم غادر، غادر في يوم أبى إلا أن يجعل منه ظاهرة محيِّرة.. فرح بذلك الطبيب القاتل أشدّ الفرح، وطفق الممرضان المتواطئان يسردان حكاية مصطفى، وما إن وقفت الأخت المتآمرة التي ما فتئت تنتظر دفنه وتُركِّب صور دفنه في ذهنها حتى دفع الزمان بها إلى الحاقة الصغيرة فدفنها هو..

لائحة بما ورد في التثقيف الفني والرياضة الذهنية والكفاية العلمية

-1- أرخوا مرساة المركب في عمق خمسة ملايين ميكرومتر.

$1\mu m _____ > 10^{-6}\ m$

$5 \times 10^{6}\ \mu m _____ > X\ m$

$X = 5 \times 10^{6} \times 10^{-6}$

$X = 5\ m$

-2- أميرة دير البلح هي الصبية الفلسطينية أميرة أبو عصر من دير البلح لم تكمل عشرين يوما من عمرها قتلها اليهود في: 05 / 03 / 2008م بعد قتل الرضيع محمد البُرْعي في: 27 / 02 / 2008م. -3- وقع المسجد الأقصى في المرة الأولى سنة: 492 هـ الموافق: 1099م، ووقع للمرة الثانية سنة 1967م، و283 سنة من تاريخ التململ بعد تحريره من طرف صلاح الدين الأيوبي سنة: 583 هـ الموافق 1187 ميلادية إلى تاريخ سقوطه يعطينا رقما لتاريخ جلاء الإنجليز عن مدينة طنجة وهو سنة: 1684م تحت ضغط الحصار الذي فرضه الجيش المسلم. -4- دعوة نابليون اليهود إلى التوجه إلى فلسطين ليتخذوها وطنا لهم كانت سنة: 1798م، و269 سنة بعد حرق اثنين من المسلمين بغرناطة خالفا

قانونا يحرم الاغتسال والوقوف تجاه القبلة والختان يعطينا رقما هو: 1529م وهو اليوم المهرجاني المشهود لإحدى الجرائم الصليبية. -5- مرض مومو مرض يتسبب في زيادة وزن الجسم بشكل غير طبيعي ويعزي ذلك بعض الأخصائيين إلى خلل في الجين. -6- كاساباراطا كلمة إسبانية مركبة من كلمتين هما: كاسا Casa وتعني الدار، وباراطا Barata وتعني الرخيصة والزهيدة. -7- زيارة ونستون تشرشل لمدينة طنجة كانت سنة 1932م وقد أقام في فندق المنزه المطل على الأندلس والذي نشأ عام: 1930م، والأعوام الخمسة قبل تلك الزيارة تؤرخ لنشوء الوكالة الوطنية للمحافظة العقارية بطنجة وقد تم إنشاؤها سنة: 1927م، وهو تاريخ بدء التوثيق للعقار بطنجة الدولية.. -8- سرعة الرياح قرب المناطق الاستوائية تصل إلى 1600 كيلومتر في الساعة. -9- ثعلب الماء كائن برمائي ينزل إلى قاع البحر باحثا عن طعامه من العشب فينزل معه طائر مائي يرافقه لأنه يدرك غريزيا أن الثعلب بتنقله في القاع بحثا عن النباتات البحرية يزعج السمك فيحملها على الخروج من مخابئها بين الصخور والأحجار فيصيدها الطائر ويصعد غانما. -10- التيتانيك باخرة عملاقة غرقت في شهر أبريل سنة 1912، وسنة فرض الحماية

هي السنة التي فرضت الحماية على المغرب من قبل الاستعمار وكان ذلك في نفس السنة التي غرقت فيها الباخرة. -11- هناك ذرات تحتوي في نواها على نفس العدد من البروتونات إلا أن أعداد النيترونات فيها مختلف تسمى النظائر. -12- الحمض النووي هو مكون المورثات التي تنقل الخصائص الوراثية للكائن الحي، اكتشف سنة 1944. -13- للرجل سَيْلة (مجرى) واحدة للسوائل، ففي جهازه البولي يجري كل من البول والسائل المنوي، خلاف المرأة التي لها جهازان اثنان: الجهاز البولي، والجهاز التناسلي، أو سيلتان (مجران) اثنتان: واحدة للبول وأخرى للتناسل. -14- سأكون بالبيت بعد أن يقطع القمر مسافة ثلاثين ألف كيلومتر. سرعة القمر 18 كيلومتر في الثانية. و 30000 Km كيلومتر تقدر بـ:Min 27, 77 دقيقة.

18 Km ⟶ 1 S

30 000 Km ⟶ X S

$$18 \times X = 30\,000 \times 1$$

$$X = \frac{30\,000}{18}$$

X = 1666, 66 S

1 Min ⟶ 60 S

X Min ⟶ 1666,66 S

X × 60 = 1 × 1666,66

$$X = \frac{1666,66}{60}$$

X = 27,77 Min

15- وأنا سأغشى البيت وأجلس إلى جدتي بعد أن تقطع الأرض مسافة أربعة وعشرين ألفا وتسعمائة وخمسة وتسعين كيلومترا. سرعة الأرض 15 كيلومتر في الثانية. و 24995K m كيلومتر تقدر بـ: 27, 77 Min دقيقة.

15 Km ----------> 1 S

24995 Km ----------> X S

15 × X = 24995 × 1

$$X = \frac{24995}{15}$$

X = 1666, 33 S

1 Min ----------> 60 S

X Min ----------> 1666, 33 S

X × 60 = 1 × 1666,33

$$X = \frac{1666,33}{60}$$

$$X = 27,77 \text{ Min}$$

-16- لا يخشى مزاحمة أحد وكأنه الدوّار في ذرة الهيدروجين.. هذه الجملة بالتشبيه الذي اعتمدته بها كناية علمية، والعلم المقصود هنا هو: العلم التجريبي، فذرة الهيدروجين لها إلكترون واحد يدور حول النواة، وبصفتها هذه كان الحبيب الذي لا يخشى مزاحمة أحد عليه؛ وحيدا. -17- يتوافق صعودهما الدرج مع فقدان الممدري ستمائة وسبعة وخمسين مليون عَصَبَة. العصبة في الإنسان خلية. وبعكس باقي خلايا الجسم؛ ألعصبات لا تتجدد، إذ أننا نفقد في كل يوم 100000 عصبة، ولو كنا نعرف بالتحديد عدد العصبات فينا لأمكن معرفة عمر الإنسان، هذا بادي الرأي، أما بالنظر السليم المتأني فإننا وإن كنا قادرين على معرفة ذلك، فإن عمر الإنسان مربوط بأجله، وأجله لا يعرفه أحد إلا الله تعالى، ومهما توافق عدد العصبات مع الأجل، فإنه مثل توافق القتل المعلوم مع الأجل المعلوم في حياة الناس، فالموت يأتي والإنسان لم يفقد كل عصباته، وهذا كاف لإدراك أن معرفة العصبات لا تعني معرفة الأجل، والعصبات في هذه العبارة يكنى بها عن عمر

الممدري، فستمائة وسبعة وخمسين مليون عصبة مفقودة تعني بعملية حسابية ذهاب ثمانية عشر عاما من عمره.

(Neurones).

100 000 _____> 1J

X _____> 365 J

X = 365 × 100 000

X = 36 500000 Neurones

36 500000 _____> 1 Ans

657 000 000 _____> X Ans

$$X \times 36\,500000 = 657\,000\,000 \times 1$$

$$X = \frac{657\,000\,000}{36\,500000}$$

X = 18 Ans

"مِرِيْندا" Merienda .-18- مرييندا كلمة إسبانية تعني الوجبة المسائية الخفيفة. -19- أصوات من ساكنة الوادي تغوص وتطيل الغوص متنفسة من جلدها. الضفدع هو الحيوان الذي يتنفس من جلده إذا غاص في الماء.-20- بينهم الممدري صحبة رفاق من أبناء حيه يكبرونه بسنوات ما بين عدد إلكترونات ذرة الآزوت

والصوديوم. عدد إلكترونات ذرة الآزوت سبعة، وعدد إلكترونات ذرة الصوديوم إحدى عشرة. -21- سأل عنه صديقه في نفس اليوم الذي نغّص الجنرال أفقير على ملكه حياته. اليوم الذي نغص الجنرال أفقير على ملكه حياته هو يوم الانقلاب الفاشل الذي قاده مع أمقران سنة 1972 وعرف بانقلاب الطائرة الملكية التي استهدفت بالرصاص في الجو من طرف طائرات حربية دون أن تسقط، وكان الحسن الثاني قد استهدف بانقلاب فاشل آخر قاده الجنرال المذبوح والكونوليل اعبابو سنة 1971. -22- خمسة آلاف من المسلمات البوسنيات اغتصبن عن عمد قبل تمثيلية إسقاط رمزي الشموخ الزائف بتسع سنوات. تمثيلية إسقاط رمزي الشموخ الزائف كما ذكر في أقصوصة صحفية بعنوان: الشموخ الزائف وهي منشورة في عدة منتديات عربية ومنشورة أيضا في كتاب: الليالي العارية الطبعة الورقية لسنة: 2008 وكما هي مذكورة أيضا في كتاب: الخديعة الكبرى للصحفي الفرنسي تيري ميسان فيما بعد؛ هي التي أزاحت برجي مركز التجارة العالمية في 11 سبتمبر سنة 2001.. واغتصاب المسلمات البوسنيات من طرف الصليبيين الصرب؛ ألعنصريين كان في سنة 1992 وكنَّ قد أرغمن بعد الاغتصاب على الاحتفاظ بحملهن في حراسة مشددة

إلى أن وضعن حملهن. -23- اغتصبن قصد الإنجاب بعد قصف العامرية في ملجئها للنساء والشيوخ والأطفال بسنة واحدة. ملجأ العامرية ملجأ يقع في مدينة بغداد كان ملجأ لمئات الأطفال والنساء والشيوخ في حرب الخليج الثانية، قصفته أمريكا بسادية ودم بارد في سنة: 1991م وأحدثت فيه مجزرة رهيبة. -24- اطلع "صُولُو". صولو Solo: كلمة إسبانية تعني وحيدا. -25- و"قْطوطو" خْشا "كونو" Gono. خشا: عامية تعني إدخال الكرة في الشبكة، أو إصابة الهدف. وكونو Gono عامية أيضا محرفة عن الإسبانية وتعني الهدف وفي الإسبانية يقال للهدف: Gol -26- يتحولون إلى رئيس الفريق "تْشيكو" وقد كبر بنقص في إفراز هرمونات الغدَّة الدرقية. ينتج عن النقص في إفراز هرمونات الغدة الدرقية قزم غير متناسب، والعبارة بها كناية علمية غير مسبوقة في الكتابات الأدبية والفكرية.. يكنى بها عن قصر القامة التي يتصف بها رئيس فريق كرة القدم تْشيكو. -27- يصيح المهاجم حميدو: " أيْمّا". أيمّا: صوت نداء على الأم، ماما، أو أمي، عامية. -28- تشاجروا عنه وتنازعوا دون أن يؤدي تنازعهم إلى التحفيز الفوري لنخاع عظم أحدهم.. نخاع العظم هو الذي يكوِّن خلايا الدم الحمراء. والتحفيز الفوري لنخاع العظم

يكون عندما يفقد الإنسان كمية من الدم بجرح أو ما شابه، يحفزه المفقود من الدم على تكوين خلايا الدم لتعويض المفقود، صحيح أن نخاع العظم يعمل على تكوين الخلايا الدموية بدون الحافز الذي ذكرنا؛ إذ تلك وظيفته، ولكنه عند فقدان الدم ينشط بوجود باعث على تنشيطه في وضع غير عادي، فينطلق لتكوين الخلايا الدموية، ويعمل على تخثر الدم لإيقاف النزيف حفاظا على ما تبقى ريثما يصنع ما يعوض به ما ضاع. وتوظيف المعلومة العلمية في الكتابة الأدبية إضافة إلى كونه رياضة ذهنية وتثقيفا فنيا لتحقيق المتعة العاطفية والمتعة الذهنية كمكونات للأدب الممدري، فإنه أيضا يأتي بالكناية العلمية، وهي من الأدب الممدري كذلك، فالكناية هنا عن الجرح الذي لم يحصل. الكناية صورتان ذهنيتان تسجلان خصاما وشجارا وتنازعا بين المتفرجين بسبب اعتداء على لاعب كرة القدم "حميدو"، ولكن الخصام والشجار والتنازع لم يؤد إلى الجرح الذي هو محفز فوري لنخاع العظم حتى يعطي خلايا دموية تعويضا لتلك التي ذهبت بسيلان الدم، أو نزيفه، وهو لم يحصل، وهي الصورة الأولى. وأما الصورة الثانية فإنها خصام وشجار وتنازع وعراك وضرب ولكن دون جرح.. -29- عيون بعدد كروموسومات ذكر النحل انطفأت منها واحدة؛ تحدِّق في حركة

ليلى وتتابع ترنحها. ذكر النحل يحمل 16 فردا من الصبغيات (الكروموسومات)، بينما أنثى النحل تحمل 16 زوجا من الكر وموسومات، ومن أغرب شؤون الخلق أن ذكر النحل ينتج من بيوض غير ملقحة بعملية تسمى التكاثر العذري، هذا في عالم الحشرات، وفي عالم الإنسان جاء نبي الله عيسى عليه السلام من غير أب، وقد حملت به أمه في رحمها، ترى هل نتج من ببضة غير ملقحة للبتول الطاهرة مريم؟ -30- بقي معي إمداد طاقي من البطاطس مثلا ما يصل إلى ستة ملايين وستمائة وثمانية ألف كيلو جول، ومن الجزر ما يصل إلى ثمانمائة وثلاثة وخمسين ألفا وستمائة وخمسين كيلو جول، ومن الخبز ما يصل إلى أربعة ملايين وأربعمائة وأربعة وأربعين ألفا ومائتي كيلو جول...".

250 غرام من البطاطس تحتوي على 944 كيلو جول، و6.608000 كيلو جول تساوي 7 كيلوغرام من البطاطس. و 150 غرام من الجزر يحتوي على 271 كيلو جول، و 853650 كيلو جول تساوي 3 كيلوغرام و 150 غرام من الجزر. و 150 غرام من الخبز يحتوي على 1646 كيلو جول، و 4.444200 كيلو جول تساوي 2 كيلوغرام و 700 غرام، وهي بمعدل 9 خبزات كل خبزة منها تزن: 300 غرام. -31- فغادروا وهم بعدد

سيمفونيات الموسيقار بيتهوفن.. سيمفونيات الموسيقار بيتهوفن تسعة. -32- ساد الصمت محيط ليلى إلا من صوت الدرادبي والنوارس، ليس من بين الطيور طير لا تجيد الهبوط على الأرض، إذا حطت حطت متزحلقة على اليابسة، وإذا طارت طارت راكضة برجليها حتى تلقي بنفسها في الهواء من الأعلى. الطير التي لا تحسن الهبوط على الأرض هي طير القطرس تعيش في جزر هاواي. -33- لم تجربه بعد منع قرنيتي عينيها بما يمدها بالحياة. الذي يمنع قرنيتي العين مما يمدها بالحياة هو انقطاع الأكسيجين الذي تتلقاه القرنية مباشرة من الجو وليس عبر الدم، والعبارة بها كناية علمية عن العمى. -34- بعد ولادة جاليليو بسنوات هي أعداد إلكترونات كل من ذرة البوتاسيوم واليورانيوم والذهب والزئبق واليود والنحاس والبلاتين. جليليو عالم إيطالي رائد في علم الفلك سجن بسبب آرائه المخالفة للكنيسة والتي منها قوله بدوران الأرض، وقول الكنيسة بعدم دورانها، كانت ولادته سنة 1564م. وأعداد الإلكترونات في الذرات المذكورة هي: 410 مفصلة كالتالي: البوتاسيوم 19 إلكترونا. اليورانيوم: 92 إلكترونا. الذهب: 79 إلكترونا. الزئبق: 80 إلكترونا. اليود: 53 إلكترونا. النحاس: 29 إلكترونا. البلاتين: 78 إلكترونا. ورقم:

410 ناقص رقم: 1564 يعطينا رقم: 1974 وهو التاريخ الذي ظهر فيه للممدري ابن عمته دريسو. -35- جلب معه بضعة شباب يحاكون إلكترونات ذرة الآزوت. ذرة الآزوت تحمل 7 إلكترونات، والجملة مفتوحة لفهم أن المقصود عدد الرفقاء للممدري، ولفهم أنهم يدورون حوله كالإلكترونات باعتباره محورا لهم، وفي هذا كناية علمية يتميز بها الأدب الممدري عن غيره.

بيانات عن صاحب الكتاب

محمد محمد البقاش *أديب باحث وصحافي* **من مواليد زنقة المعدنوس حي الدرادب مدينة طنجة سنة 1954.**
عمل مدير ورئيس تحرير مجلة (الجيرة) التي كانت تصدر في طنجة، وتوقفت بسبب انشغالاتها في طباعة الكتب الثقافية التي تخرجها على شكل سلسلة.
عمل رئيسا للقسم الثقافي بمجلة (المهاجر)، و جريدة (صوت المهاجر) اللتين كانتا تصدران في غرناطة بإسبانيا...

أستاذا محاضرا في المؤسسات الثقافية بغرناطة في المعهد الأوروعربي، والكليات منها محاضرة عن الإرهاب في كلية العلوم السياسية بغرناطة بتاريخ: 14 / 12 / 2001.

حاضر في المؤسسات الثقافية بطنجة منها محاضرة خاصة للأساتذة الإسبان الذين يقدمون من شتى المدن الإسبانية يتطوعون في جمعية الأمل المغربية لتعليم اللغة الإسبانية..
كانت المحاضرة عن الهجرة السرية في المعهد الوطني للعمل الاجتماعي INAS بتاريخ: 13 غشت سنة 2008م بمناسبة صدور كتابه الهجرة السرية (مجموعة قصصية) مترجما إلى اللغة الإسبانية في نفس السنة.
ومحاضرة عن الأدب الممدري في غرفة التجارة والصناعة والخدمات بطنجة في: 13 مارس 2009.
ومحاضرة في 17 رمضان الأبرك لسنة 1431 هـ الموافق 28 غشت 2010 على الساعة العاشرة ليلا بقاعة المحاضرات بغرفة التجارة والصناعة والخدمات بعنوان: القرآن الكريم وجهازه المناعي.

ومحاضرة في 25 رمضان الأبرك لسنة 1431 هـ الموافق 05 شتنبر لسنة 2010م على الساعة التاسعة والنصف ليلا بقاعة المحاضرات بمندوبية وزارة الثقافة بعنوان: الأدب المَمْدَري بين الإبداع والانضباع.

وقراءة في رواية: نساء مستعملات على هامش المعرض الجهوي للكتاب بقاعة مندوبية وزارة الثقافة في يوم: 10 شتنبر 2010 على الساعة الخامسة مساء.

عمل معدا ومقدما لبرنامج: دنيا المرأة، وبرنامج: أدبيات بإذاعة مدي أنطر (إذاعة المنار اليوم) ببروكسيل سنة 1987 – 1988.
وأستاذا بالمدرسة العربية ببروكسيل سنة 1987 – 1988.
ومعلقا سياسيا بإذاعة ميدي 1 ببروكسيل سنة 1987 – 1988.
فاز بجائزة أحسن رسالة صحفية بجريدة الشرق الأوسط سنة 1988.
فاز بجائزة المربد للقصة القصيرة سنة 2006.
فاز بجائزة ناجي نعمان للإبداع سنة 2007.
منحت له مطلع سنة 2009 الدكتوراه الفخرية وهي درجة تمنحها واتا WATA الدولية للمترجمين واللغويين العرب للشخصيات العربية التي قدمت إسهامات بارزة في ميادين الترجمة والعلوم اللغوية واللغة العربية والثقافة والإبداع، وذلك بهدف تكريم وإبراز الشخصيات الأكثر عطاءً وإبداعا وتأثيرا في حركة الثقافة العربية.

نشرت له أعمال بكل من جريدة الشرق الأوسط، والسياسة،

والحياة الجديدة، وحق العودة، ومجلة الناقد، والمهاجر، والوعي، ومعظم الصحف المحلية والجهوية الصادرة في طنجة..

ــ مدير سلسلة الكتب الثقافية لمنشورات مجلة الجيرة.
ــ رئيس جمعية الجيرة للتفاعل الثقافي.
ــ مدير ورئيس تحرير طنجة الجزيرة (جريدة إلكترونية).

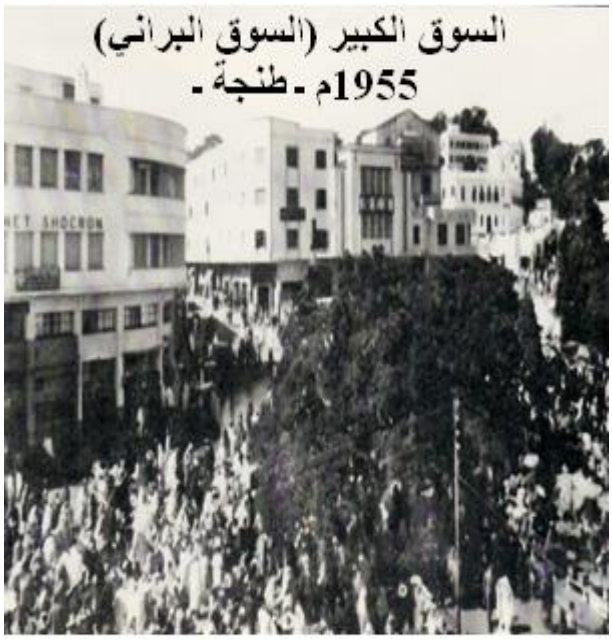

نشرت له الكتب التالية

- تائية الانتفاضة (ديوان شعر بقصيدة واحدة في ألف بيت) الطبعة الأولى سنة 1998 والطبعة الثانية 2002.
- الكلام الذهبي (مجموعة حكم) الطبعة الأولى سنة 1998 والطبعة الثانية 1999.
ـ حكومة الجرذان (قصة بالكاريكاتير للأطفال) الطبعة الأولى سنة 1998.
ـ الديك المترشح (قصة بالكاريكاتير للأطفال) الطبعة الأولى 1998.
ـ الهجرة السرية (مجموعة قصصية) الطبعة الأولى سنة 1998 وهي أول كتاب عن الهجرة السرية من مضيق جبل طارق والطبعة الثانية سنة 2003 والنشرة الإلكترونية الأولى وقد صارت فيها المجموعة من الأدب المَمْدَري سنة: 2007 والطبعة الأولى بالإسبانية سنة: 2008.
ـ انتفاضة الجياع (رواية) الطبعة الورقية الأولى سنة 1999، والنشرة الإلكترونية الأولى 18 فبراير 2008م، وقد صارت من الأدب المَمْدَري.
ـ التفكير بالنصوص (بحث أكاديمي) الطبعة الأولى سنة: 1999.
ـ وجه العالم في القرن الحادي والعشرين (دراسة مستقبلية للمؤسسات الدولية المالية والاقتصادية والسياسية) الطبعة الأولى سنة 1999.
ـ الإعلام والطبيعة. (الجزء الأول) الطبعة الأولى سنة 2001.

ـ الأقصوصة الصحفية (تقنية الكتابة والبناء) منشورات المهاجر غرناطة فبراير 2002.
ـ الليالي العارية (أقصوصات صحافية) الطبعة الأولى سنة 2008.
ـ ظلال الطفولة (مجموعة قصصية من الأدب المَمْدَري للصغار والكبار) النشرة الإلكترونية الأولى نوفمبر سنة: 2008، والنشرة الورقية الأولى 2009.
ـ طنجة الجزيرة (رواية من الأدب المَمْدَري للصغار والكبار) الطبعة الورقية الأولى: 2009، والنشرة الإلكترونية الأولى: 2009.
نساء مستعملات (رواية من الأدب الممدري) الطبعة الورقية الأولى 2010.
سخف الحداثة وخواء الحداثيين (في النقد والنقض) الطبعة الورقية الأولى: 2010، والنشرة الإلكترونية الأولى: غشت 2009,

وله أعمال جاهزة تنتظر دورها في الطباعة مثل: النظرية المَمْدَرية (في الفكر والأدب والفلسفة..) والإعلام والطبيعة (الجزء الثاني). والألق المتمرد (شعر). وسيمفونية الكون (قصص ممدري)..

للاتصال بالمؤلف

العنوان بالمملكة المغربية:

محمد محمد البقاش

حي الزودية ــ ، زنقة 10 ــ رقم: 16 ــ طنجة، المغرب.

Mohammed Mohammed Bakkach

Quartier ZAOUDIA Rue 10 , N° 16 , Tanger ,

Maroc.

Site :

www.tanjaljazira.com

www.bakkach.c.la

www.aljyra.c.la

Email:

mohammed_bakkach@hotmail.com

Asociacion.aljyra@hotmail.com

bakkach1@hotmail.fr

Tlf Mob:

0671046100

(+212) 671046100

مؤلفات الكاتب

في الأعلى من اليمين إلى اليسار:

-1- الهجرة السرية (مجموعة قصصية) -2- الكلام الذهبي (حكم) -3- الديك المترشح (قصة بالكاريكاتير للأطفال) -4- حكومة الجرذان (قصة بالكاريكاتير للأطفال) -5- تائية الانتفاضة ديوان (شعر بقصيدة واحدة في ألف بيت) -6- التفكير بالنصوص (بحث أكاديمي) -7- الأقصوصة الصحفية (تقنية الكتابة والبناء) -8- الليالي العارية (أقصوصات صحافية) -9- الهجرة السرية (الطبعة الثانية -10- La Inmigracion Clandestina) -11- الإعلام والطبيعة (دراسة) -12- وجه العالم في القرن 21 (دراسة مستقبلية للمؤسسات الدولية المالية والاقتصادية والسياسية) -13- ظلال الطفولة (قصص من الأدب المَمْدَري) -14- انتفاضة الجياع (رواية) -15- طنجة الجزيرة (رواية من الأدب الممدري). -16- نساء مستعملات (رواية من الأدب المَمْدَري) -17- سخف الحداثة وخواء الحداثيين (في النقد والنقض).